تفسير سورة القصص

قصة الصراع بين الخير والشر
أو الصراع بين الحق والباطل

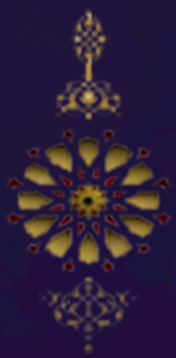

أ.د. السيد عبد الحليم محمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تفسير سورة القصص

قصة الصراع بين الخير والشر

أو

الصراع بين الحق والباطل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة القصص[١]

بين يدى السورة

سميت بسورة القصص: لأنها تناولت الكثير من القصص، وخصوصًا قصة موسى وقومه، فتناولت حياة موسى فمهدت بأمر فرعون مع قوم موسى، ثم تناولت ميلاد موسى، ثم قصة موسى مع فرعون، وقصته مع الرجلين، ثم قصة خروجه وعمله مع الرجل الصالح وزواجه من ابنته، ثم قصة الوحى إليه وكلام الله تعالى له ورسالته وإيتائه الكتاب، وكفر قومه به، ثم ربطت السورة ذلك بتكذيب كفار قريش للنبى ﷺ، ثم انتقلت السورة إلى تسلية النبى ﷺ فتناولت قصة قارون من قوم موسى، وتكذيبه للدعاة من قومه وكيف خسف الله به الأرض رغم ماله وطغيانه، وختمت بشارة النبى ﷺ بالوعد بالعودة إلى مكة، وأمرته بالإعراض عن المشركين، وأن لا يكون ظهيرًا للكافرين.

❁ ❁ ❁

(١) القصص مأخوذ من قصَّ الأثر وتتبعه، وقد اشتهر به بعض العرب قديما، ومهروا فيه، حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة.. إلخ وقد اشتهرت عندهم قصة الرجل الذى فقد جمله، وقابل أحد القصاصين، وسأله عنه فقال: جملك أبتر (**أى مقطوع الذنب**) الذنب؟ قال نعم، قال: أعور؟ قال: نعم، قال: أعرج؟ قال نعم عندها لم يشك صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذى أخذ جملة، فأمسك به وقاضاه.

وفى مجلس القضاء، قال الرجل أو الله ما أخذت جملك، لكنى رأيت الجمل يبعثر بعْرهُ خلْفه، أما هذا فيضع بعره مرة واحدة، فعرفت أنه مقطوع الذنب، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثر فى الرمل، فعرفت أنه أعرج، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفت أنه أعور. والله يقص علينا الواقع، فقصص القرآن لا يعرف الخيال فيسميه القصص الحق أو أحسن القصص.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

توافـــق دقيـــق

نلاحظ أن سورتين فى القرآن الكريم تبدآن بطريقة متشابهة هما سورتا يوسف، وسورة القصص، وفى كلتا السورتين تركيز على قصة أساسية تتخللها قصص فرعية تشكل جوانبا رئيسية فى القصة الأساسية مع الفارق بينهما نجد أن سورة يوسف بدأت هكذا ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ (يوسف: ١ - ٤)، فيما بدأت سورة القصص هكذا ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ (القصص: ١ - ٤).

وقد يُظَنّ: إن سورة يوسف ألصق باسم القصص من هذه السورة لورود لفظة القصص فى أولها، وتداخل قصص عديدة ضمن القصة الأساسية، إلا أن سورة يوسف لم تتناول الصراع بين الخير والشر المطلقين، بل إن الشر فيها يؤول إلى خير، فتتوب امرأة العزيز، وتعترف بالذنب، ويتوب إخوة يوسف، ولهذا كانت تسميها بيوسف أليق وألصق بالسياق، لما أنها تناولت قصة يوسف دون غيره... بخلاف سورة القصص التى وإن تناولت عدة جوانب من قصة موسى إلا إنها ركزت بالذات على علاقة الإيمان بالكفر، والخير بالشر، علاقة موسى بفرعون وكيف تتداخل قصتهما وحياتهما قبل الصراع، والمواجهة، وكيف تنتهى... وبما أن أكثر القصص الدينية والدنيوية تتمحور حول الصراع بين الخير

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والشر، وهو ما تتناوله هذه السورة، سميت بسورة القصص، وكان هذا الاسم أليق بها من أن تُسمى بسورة موسى مثلا، لأن المحور الأساسى فيها هو الصراع بين الخير والشر حيث تمثل الخير فى موسى بطريق مباشر، وفى محمد ﷺ بطريق غير مباشر، وتمثل الشر فيها طغيان سلطة فرعون، وطغيان مال قارون بطريق مباشر، وفى كفار قريش بطريق غير مباشر.

قال السمرقندى: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فيشكون إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه السورة فى شأنهم، كيف يعرفوا ما نزل فى بنى إسرائيل من فرعون وقوله، ليصبروا كصبرهم، وينجيهم ربهم كما أنجى بنى إسرائيل من فرعون وقومه، وهذا كقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (البقرة: ٢١٤)[١].

ولفظ القصص ورد فى أول سورة القصص ولكن بطريق غير مباشر وذلك فى قوله تعالى: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾ (القصص: ٣)، أى: نقص قصصًا متتابعًا متواليًا بعضه فى إثر بعض والله أعلم[٢].

وسورة القصص هى إحدى السور المثانى[٣]، ولكها مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس وقتادة: إلا قوله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ ﴾ (القصص: ٨٥)، فإنها نزلت بين مكة والمدينة... وقال ابن سلام: نزلت بالحجة فى وقت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

---

(١) بحر العلوم: نصر بن محمد السمرقندى (٢ / ٥٠٨).

(٢) نظم الدر للبقاعى (١٤ / ٢٣٤).

(٣) الإتقان (١ / ١٧٦) نقله عن ابن اشته.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال مقاتل فيها من المدنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (القصص: ٥٢ - ٥٥)[١].

وعن ابن عباس أنها نزلت فى أصحاب النجاشى الذين فدوا وشهدوا وقعة أحد[٢]، وعدد آياتها ثمان وثمانون آية باتفاق[٣].

- السورة تدور حول إبراز الصراع بين الحق والباطل، وأن العاقبة للحق وأصله، والعقاب للباطل وأتباعه، فلم ينفع فرعون سلطته ولا أعوانه، ولم ينفعهم هو أيضا، كما لن ينفع المشركين آلهتهم المزعومة يوم القيامة ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ (القصص: ٦٤)، بل تثير آمنهم، وكذلك لم ينفع قارون ماله، بل يكون عقابه عبرة لمن خلفه ممن كان يتمنى مالاً مثل ماله، وبهذا تشير السورة إلى مصير مشركى قريش الذين كذبو بمحمد ﷺ.

أ) **السورة والمحور ظاهرة**، لأن القصص أفضل وسيلة لإبراز جانب الصراع بين الحق والباطل وعاقبة هذا الصراع ونتيجته توضحه جوانب القصص فى هذه السورة الكريمة.

ب) **وبين الافتتاحية والخاتمة**، فلما بدأت السورة بالحديث عن أمر موسى مع قومه ونصرته وتمسكه بعبادة الله تعالى حيث قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبى، (١٣ / ٢٤٧).
والمحرر الوجيز لابن عطية (٤ / ٢٧٥). والبرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٠١).
(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١ / ٥١).
(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١/ ١٨٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(القصص: ١٧)، وخروجه من وطنه، ختمت بأمر النبى ﷺ بألا يكون ظهيرا للمجرمين الكافرين، وبتسليته ﷺ عن إخراجه من مكة، ووعده بالعودة إليها. ويناسب هذا أيضا ما جاء فى أول السورة الكريمة من قول الله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ (القصص: ٧)(١)، ولما ذكر فى أول السورة علو فرعون فى الأرض وإفساده نبه سبحانه وتعالى فى آخر السورة إلى أن الدار الآخرة: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

ج) **الافتتاحية والخاتمة لما قبلها:** ظاهرة لاشتمالها على شرح بعض ما أجمل فى سورة النمل والشعراء معا من أمر موسى.

قال السيوطى: لما حكى سبحانه فى سورة الشعراء قول فرعون لموسى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ (الشعراء: ١٨ - ٢١).

وذكر فى سورة النمل قول موسى لأهله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ (الشعراء: ١٨ - ٢١)، وذكر فى سورة النمل قول موسى لأهله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (النمل: ٧)، إلى آخر ما وقع له بعد الفرار، ولما كان ذلك على سبيل الإشارة والإجمال هناك، بسط فى هذه السورة ما أوجزه فى السورتين، وفصل ما أجمله فيهما على حسب

(١) البرهان فى علوم القرآن للزكشى (١/ ١٨٥ - ١٨٦).
والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٢/ ٢٩٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ترتيبهما، فبدأ يشرح تربية فرعون له، مصدر السبب ذلك علو فرعون أبناء بنى إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته فى اليم خوفا عليه من التربح، وبسط القصة فى تربيته وما فيها من كسيره إلى السبب الذى من أجله قتل القبطى وهى الفعلة التى فعل، إلى الهم بذلك عليه والموجب لفراره إلى مدين إلى ما وقع له من الرجل الصالح وتزوجه بابنته إلى أن سار بأهله، وآنس من جانب الطور: ﴿نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ (طه: ١٠)، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه وبعثه إياه رسولاً، وما استتبع ذلك إلى آخر القصة فكانت السورة شارحة لما أجمل فى السورتين معًا على الترتيب[١]».

يضاف إلى ذلك أن فى هذه السورة من الإعجاز بذكر الغيب من أخبار الأمم الماضية فى عصر موسى وقبله وبعده، مصداقا لقوله تعالى فى آخر سورة النمل: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل: ٩٣)[٢].

وهناك مناسبة خفية بين السورتين:

وهى قوله تعالى فى آخر النمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النمل: ٩١ - ٩٣)، وفيها ذكر حرمة مكة المكرمة، والتهديد والوعيد، لكفار قريش الذين لم يراعوا حرمتها، ففيها إشارة إلى أن النبى ﷺ سيفتح مكة فتعود حرامًا كما كانت، والمناسبة هى أن ذكر نصر

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطى (١٢٢ – ١٢٣). وروح المعانى للألوسى (٢٠ / ٤١).
(٢) نظم الدر: للبقاعى (١٤ / ٢٣٤ – ٢٣٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الله تعالى لموسى على فرعون وقومه أول سورة القصص يناسب الوعد للنبى ﷺ نفتح مكة فى آخر سورة النمل ومناسبة آخرى وهى بين قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (النمل: ٩٢)، أى لسمعوا ما جرى لمن كفر وطغى وكيف كانت عاقبته، وبين قوله فى أول القصص: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (القصص: ٣)، فكأنه قيل لهم: لستم أكثر قوة وجبروتا من فرعون وقومه، وليس أتباع النبى ﷺ فى مكة بأضعف من بنى إسرائيل فى مصر فرعون حين كان يعذبهم ويذبح أبناءهم، فهلا تأملتهم عاقبة الفريقين وسلكتم أنهج الطريقين[1].

د) بين المقاطع والمحور بوضوح تام، فإبراز الصراع بين الحق والباطل، وأن العافية للحق وأهله، وما توضحه القصص المذكورة تبين عاقبة الظلم والاستكبار والطغيان وعاقبة الإيمان وأهله. ومن أ ول السورة بيان لوجه من أوجه القدرة الإلهية حيث نجى الله تعالى موسى من القتل عند الولادة بينما استمر فرعون في ذبح الأولاد خوفا من مولود يقضى على ملكه، لكن عندما ولد موسى تولى فرعون بنفسه تربيته وخدمته، ليعلم عن التدبير والقضاء والإمضاء[2] قال تعالى: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص: ٦)، ثم نجى الله تعالى موسى من فرعون وملئه لما أرادوا قتله فى شبابه بعد أن قتل القبطى، وأمنه منهم لما عاد وخاف أن يقتلوه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ (القصص: ٣٣)، فأيده الله بالآيات الباهرات،

(١) نظم الدرر، للبقاعى (١٤ – ٢٣٥ – ٢٣٨).

(٢) المرجع السابق (١٤ / ٢٣٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۚ﴾ (القصص: ٣٢)، وشَدَّ عضده بأخيه هارون، وجعل لهما سلطانًا. كى لا يتمكنوا عن أيذائهما، ووعد بنصرهما، ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (القصص: ٣٥). ثم نصره على السحرة بعد أن ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ١١٦)، ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ (طه: ٦٦ - ٦٨)، ثم نجى الله موسى وبنى إسرائيل عن فرعون وقومه، بأن فلق لهم البحر، وأغرق فرعون وجنوده ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٤٠)، ثم فيها بعد ذلك تحذير لكبار قريش من الركون إلى الدنيا والاغترار بها والعطر فيها حتى لا يصيبهم العذاب بظلمهم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (القصص: ٥٩)، ويخيروا يوم الحساب، حين يتبرأ لأتباع من الأصحاب عندما يرون العذاب.

تلا ذلك قصة قارون وطغيانه فى المال، وعدم قيامه بحقه، وظلمه لقوم موسى، وأنكر فضل الله عليه، وأنكر حق عباد الله تعالى فى المال فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ﴾ (القصص: ٧٨)، ولم يتعظ بمن قبله ممن هو ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ (القصص: ٧٨)، فخسف الله تعالى به وبداره الأرض. وهكذا تختم هذه القصص بقاعدة عامة لا تتغير ولا تتبدل ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)، تليها قاعدة مثلها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (القصص: ٨٤)، تختم السورة ببشارة عظيمة للنبى ﷺ بالعودة إلى مكة منتصرًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ (القصص: ٨٥)،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفيها تهديد ووعيد ضمنى لكفار قريش، كى يتعظوا بهذا القصص وما جاء فيها، ويلحظوا تدبير الله تعالى لعباده الصالحين عندما يثبون على الحق. – هذا وعد الله تعالى لعباده الصالحين، ووعيده للمكذبين والظالمين، لا يتخلف ولا يتبدل، فهو الله سبحانه الإله الحق ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨).

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ (القصص: ٨٨)، قولان:

أحدهما: إلا ما أريد به وجهه من الإيمان والعمل الصالح[١].

والثانى: إلا هو سبحانه وتعالى[٢] وكلاهما ينسجم مع السياق العام للآيات ومحور السورة وهكذا توضح السورة الكريمة سوء خاتمة الظالمين المستكبرين والمفسدين وعاقبة المؤمنين الصادقين الموحدين.

❁ ❁ ❁

(١) الوسيط فى تفسير القرآن المجيد: على بن أحمد الواحدى النسابورى (٣/ ٤١١).

(٢) تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبى زمنين (٣/ ٢٠٣).

وزاد المسير فى علم التفسير: لابن الجوزى (٦/ ٢٥٢) معالم التنزيل للبغوى (٦/ ٢٢٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

طغيان فرعون وفساده
وعد الله تعالى بإنقاذ المضطهدين وتوعده بعقوبة المفسدين

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (القصص: ١ - ٦)

المعنى

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة «طا ، سين ، ميم» للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين، البعيدة الرتبة، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف فى لغة البشر الفانين.

ثم تقرر حقيقة أن ما يتلى من آيات عظيمة الشأن، عالية القدر هو آيات القرآن الكريم الذى وصف هنا بأنه الكتاب المبين الموضح لحقائق الأمور، وأن ما يتلى سيتناول جوانب من نبأ موسى وفرعون، ولأنه كلام الله تعالى فهو الحق، ولا ينتفح بالحق إلا القوم المؤمنون.

تشرع السورة فى التمهيد لقصة موسى مبتدأ بما قبل ولادته من طغيان فرعون وعلوه فى الأرض، وكيف قام بتقسيم أهلها إلى شيع وطوائف وفرق، حيث فرّق بينهم لئلا يتمالؤا عليه فيصل إلى ما يريده منهم[1]، وفى الآية احتباك

(١) نظم الدرر، للبقاعى (١٤ / ٢٣٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حيث ذكر العلو أولاً وليلاً على السُّفُولِ ثانيا، وفرق الافتراق ثانيا دليلاً على الاجتماع أولاً[١].

كما تذكر السورة قيام فرعون باستعباد طائفة من الناس وهم بنو إسرائيل واستضعافهم، حيث أمر بذبح أولادهم الذكور، وجاء فعل الذبح مشدَّوًا (يُذبّح) أى: تذبحًا كثيرًا، خوفا من مولود يقضى على ملكه، كما أمر فرعون بالإتيان على نسائهم ربما من أجل العمل فى الخدمة ونحوها، فصار من المفسرين وسمى هذا الفعل استضعافًا لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم[٢].

❁ ❁ ❁

وقد قيل فى سبب ذبح الأبناء وجوه:

الوجه الأول: أن كاهنا قال له يولد مولود فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يده، فأمر بقتل الأبناء **(الأولاد)** الذكور من بنى إسرائيل.

وقد قال بعضهم: فى هذا دليل على حمق فرعون فإنه إن صدّق الكاهن لم يستفد من القتل، وإن كذّب الكاهن فما وجه القتل[٣]؟

وقال الزجاج: والعجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع. وإن كذب فلا معنى للقتل[٤]. والحذر لا يرد القدر.

قال الزمخشرى: وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤)، يدل على أن القتل ما كان إلا فعل المفسرين فحسب، لأنه فعل لا طائل تحته، صدق الكاهن أو كذب ولا أثر له فى دفع قضاء الله تعالى[٥].

---

(١) نظم الدرر، للبقاعى (١٤ / ٢٣٩).

(٢) معلم التنزيل: للبغوى (٦ / ١٨٩).

(٣) الكشاف: للزمخشرى (٣ / ٣٩٧). مفاتيح الغيب: للرازى (٢٤ / ١٩٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبى (١٣/ ٢٤٩).

(٥) الكشاف: للزمخشرى (٣ / ٣٩٧). نظم الدرر: للبقاعى (١٤ / ٢٤٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد يجيب المنجمون: بأن النجوم دلت على أنه يولد ولد لو لم يقتل لذهب بملك فرعون، وعلى هذا التقدير لا يكون السعى فى قتله عبثا، ذكر ذلك **الإمام الرازى**. وأجاب عنه إجابة مقتضبة، فقال: واعلم أن هذا الوجه ضعيف لأن إسناد مثل هذا الخبر إلى الكاهن اعتراف بأنه يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل، ولو جوزناه لبطلت دلالة الأخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو بإجماع المسلمين باطل[(١)]. والذى أراه أن الجواب عن مثل هذه الشبهة تكون بقولنا:

١ – لو صدق تنبأ الكاهن بالمولود بعينه، فيحدد عائلته ومولده، ونحو ذلك فيمكنّ فرعون من قتله.

٢ – إن قول الكاهن **(لو لم يقتل لحصل كذا)** غير كاف فى التدليل على علم الكاهن، ولو علم لقال: **(سيقتل فلا يكون كذا)** أو(ولن يقتل فيكون كذا) ونحو ذلك والله أعلم.. وعلى كل حال فلا ندفع شبهة الحمق عن فرعون وأعوانه.

الوجه الثانى: وهو قول السدى: أن فرعون رأى فى منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس، واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بنى إسرائيل، فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بقتل الذكور[(٢)].

الوجه الثالث: أن القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل حين ورد مصر، أو قول غيره من الأنبياء عليهم السلام، وأنهم بشّرُوا بمجيئه، وسمع فرعون بهذا العقول فلهذا كان يذبح أبناء بنى إسرائيل[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب: الرازى. (٢٤ / ١٩٣).

(٢) جامع البيان: للطبرى، (٢٠ / ٢٧). مفاتيح الغيب: الرازى، (٢٤ / ١٩٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٦ / ٢٩٥). مفاتيح الغيب: للرازى (٢٤ / ١٩٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد رجّح الرازى هذا القول، أو هذا الوجه، ولعله هو الأولى بالقول. والله أعلم.

وعلى كل حال فإن الله تعالى أثبت لفرعون فعله القبيح بقتل الأولاد والإفساد فى الأرض، وهذا يكفى فى القصّة.

لكنّ إرادة الله فوق كل طاغية، وهنا تذكر السورة إرادة الله تعالى أن يمنّ على هؤلاء المستضعفين فى الأرض، ووعده سبحانه لهم أنه يمكنّ لهم فى الأرض، أى: يوقع لهم التمكين، وأن يجعلهم (أئمة) أى: ولاه[1] يرثون أرض أعدائهم وملكهم ويحكمون بلدهم قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: ١٣٧)، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ٥٩)، كما وعد سبحانه أن ينتقم من عدوهم فرعون، ووزيره هامان، وجنودهما، وهى عاقبة جميع المفسدين، ولو بعد حين. والحمد لله رب العالمين... وجاء لفظ التمكين مقرونًا بالتهديد والوعيد لفرعون ووزيره هامان وجنودهما لبيان أن هذا التمكين عظيم يؤدى إلى القضاء على ملك فرعون وملئه[2] وهو الأمر الذى كانوا يخشونه.

وذبحوا بسببه الكثير، من أبناء بنى إسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٦).

وفى هذا بيان لكمال القدرة الإلهية فى التصرف والتدبير من الحكيم الخبير.

❁ ❁ ❁

(١) تفسير القرآن من كتاب الجامع: لابن وهب، (٢ / ١٦٤).

(٢) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٢٤١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعــــــبر

- يهدف القصص القرآنى فى هذه السورة إلى إبراز جوانب الصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر، وبيان حقائق الأمور، ولهذا وصف بـ (المبين).
- لا يعتبر ولا يستفيد من القصص القرآنى إلا المؤمنون.
- التفريق بين الفساد الشخصى، والإفساد الذاتى الذى يتعدى إلى الغير، والإنسان هو الذى يؤدى إلى عقوبة الله تعالى، وإيقاع الظلمة فى شر أعمالهم.
- المتتبع لآيات القرآن الكريم يصل إلى وجود علاقة وثيقة بين العلو والتكبر والطغيان وبين الإفساد، وبعد اجتماعهما يكون أخذ الله تعالى.
- يجب اجتناب الاستعلاء فى الأرض، والتعزز بكثرة الأتباع والأموال كما فعل فرعون وقارون، وفى قصتهما حجة على مشركى قريش وأمثالهم، فكما أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، فكذلك قرابة قريش لمحمد ﷺ لن تنفعهم يوم القيامة ما لم يؤمنوا[(١)] .
- يعمد الظلمة والمجرمون إلى التفريق بين أهل البلد الواحد ليسهل استعبادهم والسيطرة عليهم كما فعل فرعون ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ (القصص: ٤).
- العاقبة للحق والخير، ولو بعد حين، حيث ينصر الله تعالى المستضعفين الصابرين وينتقم من الظالمين وأعوانهم.
- قد يفتح الله بسبب البلاء أبوابًا من الخير، ولو بعد حين، فَتَجبُّر فرعون أخرج بنى إسرائيل من ذلّ العبودية، وصاروا أئمة يحكمون ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء: ١٩)[(٢)].

(١) التفسير المنير: د/ وهبة الزحيلى (١٩/ ٥٩).
(٢) التحرير والتنوير: اين عاشور، (٢٠ / ٦٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- إظهار أن العلوّ الحق لله تعالى وللمؤمنين، وأن علوّ فرعون لم يفن عنه شيئًا فى دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة[١].

❁ ❁ ❁

هذه الآيات

تحدثت عن الصراع بين الحق والباطل، وبينت أفعال الظالمين وجرائمهم، كما بينت وعد الله بنصرة عباده المستضعفين.

وقد ذكرت فيه خمس صفات ذميمة للعتاة، وهى الاستعلاء فى الأرض، واستضعاف الغير، وقتل الأبناء، وإبقاء البنات واستعبادهن، والسعى فى الإفساد...

وذكر فى مقابل هذه الصفات الخمس خصائص خمسًا للمستضعفين من بنى إسرائيل وهى: إنقاذهم من الظلم وجعلهم القادة بعد فرعون وقومه، وجعلهم ورثة لملكهم، وتمكينهم، وجعل السلطة لهم، وإظهار ما كان يحْذرْ فرعون وهامان وجنودهما من دمار وذهاب ملكهم على يد بنى إسرائيل[٢].

❁ ❁ ❁

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور، (٢٠ / ٨٥).

(٢) التفسير المنير، الزحيلى (١٩ / ٥٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ميلاد موسى ونجاته من القتل

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (القصص: ٧ - ١٣)

تمهيد

الآيات الكريمة تتحدث عن ميلاد موسى عليه السلام وخوف أمه من أن يقتله أتباع فرعون، وكيف نجاه الله تعالى منهم.

بعد ميلاد موسى خافت أن عليه؛ لأن أتباع فرعون كانوا بالمرصاد لكل مولود ذكر، وهنا تتدخل الإرادة الإلهية، فيأتى الوحى إلى أم موسى وكان وحى[1] الهام ويأمرها بأن ترضعه وتلقيه - عند خوفها عليه - فى اليم، كما بشرها الوحى بأن موسى سيرجع إليها، ويكون من المرسلين، فلا داعى لأن تخاف أو تحزن.

(١) ذكره ابن وهب فى تفسير القرآن من كتابه الجامع، (٢ / ٥٣ - ٥٤).
الوسيط فى تفسير القرآن المجيد: النيسابورى (٣/ ٣٩٠).
معالم التنزيل: للبغوى، (٦/ ١٩٠). وقيل: أتاها جبريل بذلك، والله أعلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفى الآية لفتة عجيبة إلى تعانق الأخذ بالأسباب مع الثقة بالله تعالى، والتسليم لقضائه فقد أمر الله تعالى أم موسى أن تحافظ عليه وترضعه، ثم إذا خافت عليه الذبح تلقيه فى اليم، ونهاها عن الخوف عليه من الغرق أو الذبح أو الموت جوعًا أو أى خوف آخر قد يتصور، كما نهاها عن الحزن عليه الفراق، وبشّرها بعودته ولقائه، وإكرامه بالرسالة، أى: أنه هو النبى المنتظر الذى سيقضى على ملك فرعون.

ويسير المهد بموسى فى حفظ الله ورعايته، حتى يصل إلى قصر فرعون، لتلتقطه زوجة فرعون، التى كانت محرومة من الولد، فرغبت فى الاحتفاظ به وتربيته. وتوسلت كلا لا يقتلوه، فكان أن تربى موسى فى قصر ألد أعدائه، فرعون الذى أمر بقتل كل موجود ذكر إنها إرادة الله تعالى، وهى فوق كل شىء.

ولما كانت عاقبة إلتقاط موسى إهلاك فرعون وملئه عبّر سبحانه وتعالى بلام العاقبة التى معناها التعليل، فقال تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص: ٨)[1]، وذلك تهكما بفرعون لحمقه وجهله، إذ أن العاقل – لا سيما المتحذلق – لا ينبغى له أن يقدم على شىء حتى يعلم عاقبته، فكيف إذا كان هذا الإنسان يدّعي أنه إله، كما فعل فرعون؟

ففى الآية تهكم بحمق فرعون وجهله، وبيان لكذب ادعائه، فلم ينفعه وزيره، ولا جنوده، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص: ٨)، أى: وأيهم تعمدوا الذنوب

(١) تفسير ابن كثير، (٦/ ٢٩٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والضلال عن المقاصد، فالخاطئ هو من تعمد مالا ينبغي[١] فلا بدع فى أن يخطئُوا ويربّوا من ذبَّحُو الأبناء من أجله، مع أنه من بنى إسرائيل[٢].

ثم أكدت الآيات على كذب فرعون فى ادعائه الألوهية حيث وافق على طلب زوجته أن لا يقتل موسى، ولو كان إلهًا لعلم الغيب، أما وقد وافق فهو لا يعلم عاقبة فعلته، لهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص: ٩)، بعاقبة فعلتهم، وأدخل فى الآية أتباعه الذين أطاعوه وصدقوه، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤)، أما أم موسى فقد طغت عليها مشاعر الأمومة الفطرية، وكادت من شدة حزنها عليه أن تظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها لولا أن تداركتها عناية الله تعالى بالصبر والتثبيت[٣]، ثم أرسلت الأم أخت موسى لتقص أثره، وتتبع خبره، حتى وقفت عليه فى قصر فرعون دون أن يشعروا بها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص: ٩)، بل هم فى صفة الغفلة التى هى أبعد ما يكون عن صفات الإله[٤]. ففيها تكذيب لفرعون وتبكيت لأتباعه.

وكان شأن الرضيع أنه امتنع عن أخذ الحليب ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ (القصص: ١٢)، تحريم منع لا تحريم شرع[٥]، وخشى آل فرعون عليه من الهلاك، فتدخلت أخت موسى دون أن تُعِّرف شرع[٦]، وخشى آل فرعون عليه من الهلاك، فتدخلت أخت موسى دون أن تُعِّرف عن نفسها، وقالت لهم: إنها تعرف

(١) بخلاف المخطئ، لأن الخطأ هو: ما لم يتعمد، ويقال لمن أراد شيئًا ففعل غيره، أو فعل غير الصواب: أخطأ. وقال الأموى: المخطئ: من أراد الصواب، فصار إلى غيره، والخاطِئُ: من تعمَّد لما لا ينبغى، لسان العرب: لابن منظور، مادة (خطأ).
(٢) نظم الدرر: للبقاعى، (١٤/ ٢٤٥ – ٢٤٦).
(٣) لباب التأويل: للخازن (٣ / ٣٩٩).
(٤) نظم الدر: للبقاعى، (١٤ / ٢٤٩).
(٥) زاد المسير: لابن الجوزى (٦ / ٢٠٦).
(٦) الجامع لأحكام، القرآن القرطبى، (١٣ / ٢٥٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أهل بيت لا يُرقَضُ حليبهم، وأنها على استعداد لكى تدلهم عليه، وهم لن يرفضوا لفرعون طلبًا، فوافقوا على ذلك، وهكذا اجتمع شمل الأم بوليدها، وقرت عينها برؤيته ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ (القصص: ١٢)، فأرسلوها.

فلما قالت لهم ذلك، وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، ثم سألتها آسيا أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها، وقالت: إن لى بعلاً وأولادًا، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أيد لها الله من بعد خوفها أمنا، فى عز وجاه ورزق ودار، فسبحان من بيده الأمر ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، الذى جعل لمن اتقاه من كل هم فرجا، وبعد كل ضيق مخرجا[١].

وهنا أيضا دليل آخر على كذب فرعون فى ادعائه الإلوهية، حيث إن كل ما تقدم من القرائن يؤكّد أن الرضيع من بنى إسرائيل، ويجعله موضع الريبة والشك حيث كان ملقى فى البحر، والتقط منه، والتى دلتهم على المرضعة من بنى إسرائيل، والمرأة التى سترضعه عن بنى إسرائيل، وقد قبل ثديها دون غيرها من القبط، فلو علم شيئًا لتخلّص منه. ولكنها إرادة الله تعالى، ولذا قال: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ (القصص: ١٣)، أى: مع هذا الظاهر فى الكشف لسّره الموجب للريبة فى أمره، فعدُّوه فى كفالته، وهو تقبل العالم لأجله[٢].

وهذا كله مصداق وعد الله تعالى، فهو الحق، وقوله الحق ووعده الحق، (ولتعلم) علم اليقين ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ (القصص: ١٣)، واقع

(١) مدارك التنزيل: للنسفى، (٣/ ٢٢٩).
(٢) نظم الدرر: للبقاعى، (١٤، ٢٥١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ١٣)، فكثير من آل فرعون ومن الناس لا يعودن هذه الحقائق، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ (الروم: ٧)، وفيها تأكيد لما تقدّم من كذب فرعون فى ادعائه الألوهية وهكذا أبدل الله تعالى أم موسى من بعد خوفها أمنا، فى عز وجاه ورزق مستمر[١].

ولله تعالى حكم فيما يجرى للخلق، فقد يكون الشىء مكروها للنفس، وعاقبته خير، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦)، وقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

وفى قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٧)، احتباك: حيث ذكر الإرضاع أولا دليلاً على تركه ثانيا، وذكر الخوف ثانيا دليلاً على الأمن أولا[٢].

وفى الآية أيضا بلاغة عالية أخرى، حيث جمع فى آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين... فالخبران: هما ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ (القصص: ٧)، وقوله ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ (القصص: ٧)، لأنه يشعر أنها ستخاف عليه..

والأمران هما: ﴿أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ (القصص: ٧)، و ﴿فَأَلْقِيهِ﴾ (القصص: ٧)، والنهيان: ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ (القصص: ٧)، و ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ﴾ (القصص: ٧)، والبشارتان.. ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٧)[٣].

❁ ❁ ❁

(١) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦ / ٢٩٩).
(٢) نظم الدرر: البقاعى (١٤ / ٢٤٤).
(٣) أحكام القرآن، محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى (٣/ ٤٩١).
والجامع لأحكام القرآن: للقرطبى (١٣ / ٢٥٢).
التحرير والتنوير: لابن عاشور (٢٠ / ٧٤ – ٧٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر

- إرادة الله تعالى فوق كل شيء.
- الفرج بعد الشدة.
- من عجائب قدرة الله تعالى أن تكون النجاة على يد من لا يتوقع منه ذلك.
- عاطفة الأمومة تغلب على النساء، ولولا تثبيت الله لأم موسى لكشفت عنه.
- هناك فرق بين العلم بالظواهر، والعلم بالحقائق.
- وجوب الأخذ بالأسباب، حيث أمر الله تعالى أم موسى أن ترضعه، وتحافظ عليه، حتى إذا خافت عليه ألقته في اليم، لترعاه عناية الله تعالى.
- يقين المؤمنين بالله تعالى يجعلهم يثقون بوعد الله تعالى، بخلاف غيرهم.
- الإشارة إلى حكمة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ (البقرة: ٢١٦)، في جانب بني إسرائيل، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ (البقرة: ٢١٦)، في جانب فرعون إذْ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم[١].
- لا يشعر الناس بتدبير الله تعالى للأمور، وقد تكرر ذلك المعنى في الآيات: فقال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٥)، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢] (القصص: ١٣).
- إصابة قوم فرعون من قبل من أحلوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر، وأوقع حسرة على المستبصر وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام[٣] العدو. وقد قيل: من مأمن يُؤتى الحذر.

---

(١) التحرير والتنوير: لابن عاشور، (٢٠/ ٨٥ -٨٦).

(٢) التفسير المنير: وهبة الزحيلي، (١٩ / ٦٩).

(٣) التحرير والتنوير: لابن عاشور، (٢٠ / ٨٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- وعد الله سبحانه للمؤمنين، ووعيده جل وعلا للكافرين، حق لا يتخلف، وقد يتأخر لحكمة يعلمها الله تعالى، وقد ردّ الله لأم موسى ولدها، وانتقم من فرعون وجنوده، ومكَّن لبنى إسرائيل.
- تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه، ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوى، ولما قدَّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى ببنى إسرائيل إنجاء أسرع، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال[1].

يتجلى حفظ الله ورعايته لموسى، وإنجائه من الذبح، ومن الغرق، ومن الموت جوعًا، ومن القتل من قبل فرعون وأعوانه، ثم إعادته إلى أمه وإقرار عينها باجتماعهما معه، وهكذا يتحقق وعد الله تعالى، ووعده الحق، وهكذا يتولى الله الصالحين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

❁ ❁ ❁

(١) التحرير والتنوير: لابن عاشور، (٢٠/ ٢٨٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَتْلُ الْقِبطِيّ خطأ ثُمّ الخُرُوجُ إلى مَدْيَنَ

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(القصص: ١٤ - ٢١)

تمهيـــــد

تتابع الآيات قصة موسى والحديث عن شبابه، وحادثة قتل القبطى ثم توبة موسى واستغفاره، ثم المطاردة ومحاولة القتل وصولا إلى هروب موسى من المدينة.

المعنـــــى

الآيات تفصيل لما جاء فى شطر آية فى سورة طه، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(طه: ٤٠)، لما بلغ موسى أشده، ونمت قوته، واكتمل عقله، آتاه تعالى الحكم والعلم ثم آتاه النبوة من بعد[١]، فعلم موسى وحكم قبل أن يبعث نبيا[٢].

وقد وردت آية شبيهة بهذه عند الحديث عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٢٢)، بدون قوله ﴿ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ (القصص: ١٤). ولعل الزيادة هنا فى وصف موسى تشير إلى أنه أوتى قوة كبيرة، كما تشير القصة بعد ذلك حيث إنه قتل القبطى بضربة بجمع كفه.. وفسَّر مجاهد الاستواء: بأنه بلوغ أربعين سنة[٣]. والله أعلم.

أكرم الله تعالى موسى بالحكم والعلم، وقيل: معناها النبوة – والله أعلم بعيد – لأن الوحى إليه وتكليفه بالرسالة كان بعد أن أنهى العمل مع الرجل الصالح، كما سيأتى فى الآيات – وقد كان إكرام الله تعالى لموسى جزاء على إحسانه فى حياته قبل النبوة فقد ذكر أنه كان يحسن إلى الفقراء والضعفاء كما فعل حين ساعد المضطهد الذى استغاث به، من بنى إسرائيل، فكافأه الله على إحسانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص: ١٤)، فعاقبة الإحسان حسنة، كما قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ (يونس: ٢٦)، وقال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (الرحمن: ٦٠).

تنتقل القصة بعد ذلك إلى حادثة فارقة فى حياة موسى حيث دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، قيل: فى وقت راحتهم وقيلولتهم، أو فى يوم عيد،

---

(١) فى معنى بلوغ الأشد والاستواء أقوال ينظر: مفاتيح الغيب للرازى (٢٤ / ١٩٩).
(٢) معالم التنزيل للبغوى، (٦ / ١٩٦).
(٣) أخرجه ابن وهب فى تفسيره القرآن من كتابه الجامع، (١ / ١٣٤).
والطبرى فى تفسيره القرآن (٢٠ / ٤٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقيل فيما بين المغرب والعشاء[١]. وقيل غير ذلك، فوجد فى المدينة رجلين يقتتلان، أحدهما إسرائيلى من شيعة موسى، والآخر من أعدائهم من القبط، فطلب الإسرائيلى الغوث من موسى على القبطى، فأجابه موسى فضرب القبطى بلكمة أو طعنة أو ضربة أو دفعة، وكان موسى قوى البنية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ (القصص: ١٤)، فمات القبطى.

ندم موسى على هذه الحادثة واستحى من ربه الذى أكرمه ونجاه وأحسن إليه ورعاه[٢] إذ كيف يقع منه ذلك، وهو الذى أوتى حكمًا وعلمًا، فندم فى الحال وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ (القصص: ١٥).

قال ذلك: لأنه لم يؤمر بهذا القتل، ولم يكن يقصد أن يفعله، ثم أخذ فى تأنيب نفسه وتحذيرها من مكايد الشيطان، لأنه (عدو مضل مبين). فى عداوته وفى إضلاله[٣]، ومع كون القتيل كافرًا معتديًا إلا أن القتل بدون سبب ذنب عظيم.

فبادر موسى بعد الندم إلى التوبة والاستغفار فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ (القصص: ١٦)، ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (القصص: ١٦).

---

(١) ذكر ابن وهب هذا القول فى تفسير القرآن من كتابه الجامع (١ / ٣٤ – ٣٥).

(٢) سيبقى موسى يذكر هذه الحادثة ويستمر منها، كما جاء فى حديث الشفاعة الصحيح وفى لفظ مسلم: (١٩٣): ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها.
وفى لفظ ابن ماجه (٤٣١٢): (فيقول: لست هناكم، ويذكر قتله النفس بغير النفس).
وفى لفظ أحمد (١١٧٤٣): (فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس فيستحى ربه من ذلك).

(٣) نظم الدرر، البقاعى (١٤ / ٢٥٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لم يكتف موسى بذلك بل أخذ على نفسه عهدًا أنه لن يكون ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص: ١٧)، أى: لن يكون معينا للمجرمين[١]، فالظهير هو المعين[٢].

أدت هذه الحادثة إلى خوف موسى من انتقام القبط لهذا القتيل، فأصبح خائفًا مترقبًا[٣]، ينتظر وقوع مكروه، ففوجئ بالإسرائيلى الذى طلب نصرته بالأمس، يصرخ طالبا للنجدة، فوقع فى نفس موسى أن هذا الإسرائيلى صاحب خصام وغواية وضلال، إذ لم يمر يوم على مقتل شخص بسبب خصامه، وإذا به يعاود الخصام فى اليوم التالى!

فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص: ١٨)، ثم لما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى، ويخلص الإسرائيلى منه.

قال أحد الرجلين لموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (القصص: ١٩)، لأنه ليس من شأن المصلحين القتل بدون سبب، بل هو شأن الجبابرة العتاة الذين

---

(١) اختار البقاعى أن يكون المعنى: أى: لا أكون بين ظهرانى القبط فإن فسادهم كثير، وظلمهم لعبادك متواصل وكبير. نظم الدرر: (١٤/ ٢٥٨).
وهذا المعنى بعيد إذ الظاهر من السياق أن المعنى: قلن أكون معينا ومساعدًا للمجرمين. ولعل المقصود بالمجرمين الإسرائيلى وأمثاله، بدليل قوله موسى له فى اليوم التالى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص: ١٨)، والله أعلم.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة (ظ هـ ر) ومختار الصحاح للرازى مادة (ظ هـ ر) ومفاتيح الغيب للرازى (٢٤ / ٢٠١). والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى (٢ / ١٤١).

(٣) التَّرَقُّبُ: الانتظار وتوقع الشىء، ولسان العرب: لابن منظور، مادة (ر ق ب) ويستخدم فى انتظار المكروه. ولباب التأويل: للخازن، (٣ / ٤٠١) وأصله كثرة الالتفات برقبته وعرًا. ونظم الدرر: للبقاعى، (١٤ / ٢٥٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقتلون بغير حق.

وقائل هذا الكلام إما أن يكون الإسرائيلي ويكون المعنى: لما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الذى هو عدو له وللإسرائيلى ظن الإسرائيلى أن يريد أن يبطش به، إذ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص: ١٨).

فقال الإسرائيلى لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾[١] (القصص: ١٩)، وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس للرجل إلا هو، وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف[٢].. وإما أن يكون القائل هو القبطى ويكون قد عرف القصة من الإسرائيلى[٣]. كأن يكون الإسرائيلى هدده بموسى وقوته، وأنه قد قتل بالأمس رجلاً بمجرد لكمة.

وقد رجح الرازى أن يكون القائل هو القبطى، ولعله هو الأقرب إلى السياق، والله أعلم وصلت قصة قتل موسى للقبطى إلى فرعون، وتأكد من أنه موسى هو الذى قتل القبطى، فبدأ الملأ يأمر بعضهم بعضًا بقتل موسى عليه السلام.

وهنا تتدخل الإرادة الربانية مرة أخرى حيث يأتى: ﴿رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[٤] (القصص: ٢٠)، ماشيا، وفى كون الرجل يأتى من أقصى المدينة ماشيا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى (٢ / ١٤٢) ومعالم التنزيل اللغوى، (٦ / ١٩٨).

(٢) مفاتح الغيب للرازى (٢٤ / ٢٠٢).

(٣) مفاتح الغيب للرازى (٢٤ / ٢٠٢) نفس المصدر.

(٤) وقدم لفظ الرجل فى هذه الآية: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ (القصص: ٢٠)، لأن هذا الأمر مهم يحتاج إلى عزم وقوة وجرأة. بخلاف ما فى سورة يس حيث أخر اللفظ هناك ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ (يس: ٢٠)، والله أعلم.

نظم الدرر: للبقاعى، (١٤/ ٢٦٢) وقد يدلّ الذى فى سورة يس على انتشار الدعوة أيضا حتى وصلت إلى أقصى المدينة، لذا قدّم اللفظ هناك إغراء لهم باتباع الدعوة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بيان للقدرة الإلهية[١] ونريد من الإثارة فى القصة حيث ينزل النصر بعد أن تضيق الأمور كما فى قوله تعالى: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ (الأحزاب: ١٠)، وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ (يوسف: ١١٠).

يأتى الرجل فيخبر موسى بالمؤامرة التى تحاك ضده من قبل أتباه فرعون، وعزمهم على قتله، حيث لن يشفع له كونه عزيزا عند فرعون، وينصحه بالخروج من المدينة، فيخرج بسرعة، خائفًا يتلفت، ويلتجئ إلى ربه التجاء الخائف، الوجل الصادق فى التجائه ودعائه ويقول: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص: ٢١)، فيستجيب له ربه تبارك وتعالى، ويلهمه سلوك الطريق إلى مدين، فقال وهو متجه إليها ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٢] (القصص: ٢٢)، فلا يضل الطريق، أو يسلك طريقا يجده فيه أتباع فرعون[٣].

❁ ❁ ❁

دروس وعبر

- بعثة الأنبياء تأتى على خلاف المعتاد، حيث يبعثون بعد الأربعين، ويفتح الله عليهم من عنده بحار المعرفة والعلوم التى لم يعرفوها من قبل ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ (الشورى: ٥٢).

---

(١) نظم الدرر، البقاعى، (١٤ / ٢٦٢).

ومن الملاحظ فى قصص الأنبياء وفى السيرة النبوية كثرة الوقائع التى تضيق فيها الأمور، حتى ليتخيل للسامع أن لا مخرج، ثم يتنزل النصر من عند الله تعالى، كما حصل فى غار ثور، وفى طريق الهجرة، ويوم أحد، ويوم الأحزاب ويوم حنين، وغيرها.

(٢) من الفتات فى الآية تقديم موسى فى دعائه لفظة (ربى) وذلك من شدة مراقبته الله تعالى، واتكاله عليه. نظم الدرر، البقاعى (١٤ / ٢٦٤).

(٣) التفسير المنير: الزحيلى: (١٩/ ٧٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- قتل موسى للقبطى كان خطأ، والقتل الخطأ ذنب، بدليل إيجاب الكفارة عليه فى شرعنا، ولأنه لا يخلو عن إهمال أو تقصير أو تجاوز الحدود المعروفة، قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ (النساء: ٩٢).

- نصر المظلوم وإغاثة الملهوف دين فى الملل كلها، وفرض فى جميع الشرائع[١].

- فضيلة الاستغفار من الصغائر والكبائر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (الزمر: ٥٣)، وقد استغفر موسى ربه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

- من توكل على الله كفاه، ونلحظ لجوء موسى إلى ربه فى كل أحواله.

- شكر النعم يقتضى الابتعاد عن الفتن ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص: ١٧).

- دلّ قول موسى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص: ١٧)، على أنه لا تجوز معاونة الظلمة والفسقة[٢].

- الخوف غريزة بشرية، ولا ينافى المعرفة بالله ولا التوكل عليه[٣].

- الإيمان رابطة وثيقة بين المؤمنين، ولهذا بادر مؤمن آل فرعون فيما ردى - إلى إخبار موسى بمكيدة فرعون وملئه، ونصحه بالخروج مسرعًا[٤].

❁ ❁ ❁

(١) أحكام القرآن: محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى (٣/ ٤٩٢).
(٢) التفسير المنير: للزحيلى (١٩ / ٧٨).
(٣) المرجع السابق: (١٩ / ٧٨ - ٧٩).
(٤) المرجع السابق: (١٩ / ٧٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اللجوء إلى مدين والزواج من ابنة الرجل الصالح

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (القصص: ٢٢ – ٢٨)

تمهيـــــد

لا يزال الحديث عن شباب موسى ولجوؤه إلى مدين، ثم تعرفه على الرجل الصالح الذى عرض عليه العمل أجيرًا مقابل الزواج من إحدى إبنتيه.

المعنـــــى

هدى الله سبحانه وتعالى عبده موسى إلى طريق مدين بعد توجهه إليها، فنجا من فرعون وجنوده، حتى وصل إلى مكان الماء الذى يستقى منه أهل مدين لأنفسهم وأنفاسهم، فشاهد منظرًا لفت انتباهه، فيما تزاحم الرعاء على الماء كلهم يريد أن يسقى أنعامه إذا بامرأتين تزودان[1]، وتبعدان أغنامهما عن السقى!

(١) الذَّوْدُ: السَّوْق والطرد والدفع – لسان العرب لابن منظور، مادة (ذود).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقيل: تمنعان عنهما أن تختلط بأغنام الناس[١] فسألهما عن حالهما فأجلبتاه بعذر المرأة المحتشمة ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص: ٢٣)، فالسبب كونهما امرأتين، فلم ترغبا فى مزاحمة الرجال، أو لم تتمكنا من مزاحمة الرجال لضعفهما[٢]، وقد اضطرتا لسقى الماشية لأن أباهما شيخ كبير لم يعد يستطع ذلك. فقام موسى بشهامته المعهودة[٣]، فى السقى لهما[٤] ثم جلس فى الظل يستريح، وقام بمناجاة ربه، الذى أكرمه وتعهده منذ ولادته قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤)، والخير الذى أنزله الله تعالى إليه كثير، فمن ذلك أن نجاه من القتل حين كان صغيرًا وربّاه فى بيت الملك، وجعله قويا حسن الخلقة، ونجاه من القوم حين قرروا قتله، وهداه الطريق إلى مدين، حين خرج هاربًا، ولذلك أظهر فقره الآن أمام الله تعالى إلى مثل هذا النوع من الخير والإحسان. فاستجاب الله دعاءه، وهيأ له الرجل الصالح ليستضيفه شكرا على مساعدة ابنتيه، ثم هيأ الله تعالى له عملًا ومأوى

---

(١) تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبى زمنين (٣ / ١٩١).

(٢) معالم التنزيل للبغوى (٦ / ٢٠٠).

أحكام القرآن: لابن العربى (٣/ ٤٩٣).

(٣) كما مر فى نصرته للإسرائيلى.

(٤) فى المصنف لابن أبى شيبة (١١/ ٥٣٠) أثر عن عمر بن الخطاب أن موسى لما ورد ما عصرين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين تذودان.

قال: ما خطبكما؟ فحدثناه ، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدًا حتى رويت الغنم، وإسناده صحيح كما يقول ابن كثير، وليس العجب من قوة موسى الذى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ (القصص: ١٤)، ولكن الظاهر من سياق الأثر أنه يخالف سياق القرآن الكريم، بدليل قول المرأتين ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ (القصص: ٢٣)، ولو كان كما فى الأثر لما تمكنتا من السقى أصلاً. والله أعلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وطعامًا وزوجة، وكل هذا لدى رجل من الصالحين[١]. وكل هذا بطلب من الرجل، وليس بطلب من موسى عليه السلام.

وذلك بأن أتت إليه إحدى المرأتين، تمشي على استحياء، يزين المرأة ويدفع عنها سوء الظن ووساوس الشيطان، فتقول له بعبارة فى تأدب ووضوح: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (القصص: ٢٥)، لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يوهم ريبة[٢] فالدعوة صادرة من أبيها، والغرض منها مجازاته ومكافأته على ما قام به من مساعدة المرأتين فى السقى. ويفهم من سياق القصة شدة حاجة موسى فى هذه المرحلة[٣] حيث دعا ربه وتضرع إليه، وأبدى فقره بين يديه أولا، ثم أجاب إلى المكافأة دون تردد ثانيا[٤] ومكافأة المحسن كريم، وقبول المكافأة لا عيب فيه.

---

(١) يرى بعض المفسرين أن الرجل الصالح فى القصة هو شعيب. جامع البيان للطبرى (٢٠/ ٦٢) ومعالم التنزيل للبغوى (٦/ ٢٠٠) وغيرهما. وقد تعقب ذلك ابن كثير فى تفسيره (٦ / ٣٠٥) فقال: كان شعيب قبل زمان موسى بمدة طويلة لأنه قال لقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٩)، وقد كان خلاك قوم لوط فى زمن الخليل بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد، ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده. وقد جزم ابن زمنين فى تفسيره بأنه ليس شعيبًا، ولكنه كان سيد أهل الماء يومئذ (٣ / ١٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، (٦/ ٣٠٤).

(٣) هكذا حال كبار النفوس مع الدنيا فها هما أعظم رجلين فى زمانهما، وهما من المصطفين الأخيار، وكلاهما ليس فى يده من الدنيا إلا القليل، وما ذاك إلا صونًا للأنبياء عن الدنيا ورفعة لدرجاتهم فى الأخرى.. نظم الدرر: البقاعى (٣/ ٢٦٧).

(٤) يلحظ عدم التردد من التعقيب بالفاء فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ (القصص: ٢٥)، والله أعلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قصَّى موسى قصصه على الرجل الصالح، فبشّره بالأمان والنجاة من أتباع فرعون الظالمين، وهنا تتحدث إحدى المرأتين إلى أبيها كى يستأجر موسى للعمل فى السقى، معللة ذلك بحكمة صارت مثلاً: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[1](القصص: ٢٦)، وهذا كلام حكيم، فلا خير فى قوة بلا أمانة، ولا كبير فائدة فى أمانة بلا قوة.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة ... صاحبة موسى حين قالت: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، فقولها كلام حكيم جامع لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة فى القائم بأمر فقد تم المقصود[2] .

قال شريح القاضى: واصفًا أمانته، أمرها أن تمشى خلفه، وغضَّ عنها بصره، وقد وصف القرآن الكريم موسى عليه السلام بالأمانة فقال على لسانه مخاطبًا فرعون: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الدخان: ١٧ - ١٨)، تتوالى نعم الله تعالى على موسى حيث يعرض عليه الرجل الصالح الزواج من إحدى ابنتيه الموجودتين أمامه، ليس مقابل المال الذى لا يمكن الفقير إلى ربه موسى، وإنما مقابل العمل أجيرًا عنده لمدة ثمانية أعوام، أو عشرة أعوام إذا أراد الإكرام[3] دون مشقة منه فى العمل أو المدة على موسى مع التأكيد على التساهل معه بقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ (القصص: ٢٧)، وافق موسى على هذا الشرط وجعل الأمر بينهما على التساهل والتراضى، مع التأكيد على حق

(١) الطبقات الكبرى لاتين سعد (٣/ ٢٧٣) وأخبار المدينة: للنميرى (١/ ٣٥٥) .
(٢) وهو كلام أجرى مجرى المثل: البحر المحيط: لأبى حيان، (٧/ ١١٤).
(٣) نظم الدرر، للبقاعى، (١٤/ ٢٧١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

موسى فى قضاء أى الأجلين دون تبعية عليه فى ذلك ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ (القصص: ٢٨)، قال القاسم بن محمد: ما أبالى أى ذلك كان، إنما هو موعد وقضاء[١].

❁ ❁ ❁

دروس وعبر

- جواز مباشرة المرأة الأعمال والسعى فى طرق المعيشة مع الستر والحياء[٢].
- فى الآيات دليل على أن شكوى الضر إلى الله تعالى مباحة، وسؤاله الغوث جائز، وليس على من أصابه ذلك أن ينتظر إتيانه من الله قبل المسألة إعتمادا على أن الله جل جلاله يعلم حاله فيأتيه برزقه، فمثل هذه المسألة لا تؤثر فى درجات المتوكلين، بل هى زيادة فى درجاتهم[٣].
- جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها رغبة فى صلاحه[٤].
- فى القصة دليل على أن من تطوع بعمل لآخر فعلين أن يعطيه أجرًا، على سبيل المروءة، وحسن الخلق لاعلى سبيل الفرض، إلا أن يمتنع من أخذه[٥].
- جواز أمور منها: ولاية الأب فى النكاح، وجعل العمل البدنى مهرًا، وجمع النكاح والإجازة فى عقد واحد، ومشروعية الإجازة[٦].
- جواز تزكية النفس لفرض الدَّيْن أو المعاملة، لأنه لغاية حسنة كما قال يوسف عليه السلام، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥)، ويُنهى عن ذلك للفخر والتمدح.

---

(١) أخرجه ابن وهب فى تفسير القرآن من كتابه الجامع. (٢ / ٣٤ – ٣٥).
(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور، (٢٠ / ١٠١).
(٣) نكت القرآن الدالة على البيان: محمد بن على الكرخى القصاب (٣ / ٥٥٤).
(٤) أحكام القرآن: لابن العربى (٣ / ٤٩٤) والتحرير والتنوير: (٢٠ / ١٠٦).
(٥) نكت القرآن الدالة على البيان: محمد بن على الكرجى القصاب (٣ / ٥٥٥).
(٦) أحكام القرآن: ابن عربى، (٣ / ٤٩٩) التحرير والتنوير، (٢٠ / ١٠١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- يحكم على الإنسان بظاهره، كما استدلت المرأة على عدل موسى وأمانته من ظاهر عمله[١].
- الحرص على الفضائل والأخلاق الحسنة، كالتى كان عليها موسى من صنع المعروف وإغاثة الملهوف، والرأفة بالضعيف، والزهد والقناعة، وشكر الله تعالى، والرغبة فى عشرة الصالحين، والوفاء بالعهد، وكالتى كان عليها الرجل الصالح، من كرم الضيافة، وتأمين الخائف، والرفق فى المعاملة[٢].
- يمكن للعاقل أن يلتمس جوانب الشبه بين أخلاق النبى ﷺ وما عرف به من زكى الخصال وكريم الفعال، وأخلاق الأنبياء من قبله وبين زواجه ﷺ من أفضل النساء من قومه، وزواج موسى عليه السلام من ابنة الرجل الصالح من مدين، وفى هذا إشارات واضحة، وإرهاصات بينة على نبوة محمد ﷺ[٣].
- الترغيب فى الخير، والحث على المعاونة على البر، وبذل المعروف للغير[٤].
- وجوب تأسى المسلمين بأخلاق الأنبياء والصالحين، وخصوصًا أخلاق أفضل الأنبياء محمد ﷺ[٥].
- جواز قبول المكافأة، ولا غضاضة فى ذلك، والمكافأة من شيم الكرام[٦].

❁ ❁ ❁

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور، (٢٠ / ١٠٩).
(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور، (٢٠ / ١١٠).
(٣) المصدر السابق (٢٠ / ١١٠ – ١١١).
(٤) نظم الدر: للبقاعى، (١٤ / ٢٦٧).
(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور، (٢٠ / ١١١).
(٦) نظم الدرر: البقاعى (١٤ / ٢٦٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بعثة موسى وأخيه هارون وتأييدهما

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (القصص: ٢٩ - ٣٥)

تمهيـــد

تولى الله رعاية أوليائه، فأرشد موسى إلى الطريق، وهيأ له: عملاً، وسكنًا، وطعامًا وزوجة، وهيأ للرجل الصالح نسبًا صالحًا، وعاملاً قويًّا أمينًا، وكفى المرأتين الخروج ومزاحمة الرجال، وبعد ذلك ينطلق موسى فى طريق عائدًا إلى أهله فى مصر حيث يأتيه الوحى من الله تعالى، ويكلف بالرسالة، ويرسل إلى فرعون وملئه لدعوتهم إلى عبادة الله تعالى بعد فسقهم وخروجهم عن طاعته سبحانه وتعالى.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المعنـــــى

قضى موسى الأجَل الأوفى وهو عْشَر سنين كما روى عن ابن عباس قال: **(قضى أكثَرَهُما وأَطْيَبَهُمَا)** ثم سار بأهله راجعًا إلى قومه بمصر، وفى طريق العودة رأى نارًا، فأنسى برؤيتها، إذ تدل على وجود أناس حولها، يمكنه أن يسألهم عن الطريق، أو يعطوه جذوة أو عودًا غليظًا مشتعلاً ليوقد به نارًا يتدفأ وأهله بها، وليس فى هذا دليل على أن الوقت كان شتاء، وإن كان يستأنس به لأن ليل الصحراء بارد.

عندما وصل موسى إلى النار سمع نداء من الجانب الأيمن للوادى ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ (القصص: ٣٠)، وكان النداء صادرًا من الشجرة، كانت بداية الوحى إلى موسى حيث ناداه الله تعالى قائلاً: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (القصص: ٣٠).

ثم أمره الله تعالى أن يلقى عصاه ليريه من آياته سبحانه[1] فألقاها موسى ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الشعراء: ٣٢)، وقع الخوف فى نفس موسى عندما رأى هذه الحَّية العظيمة وهى على كبر حجمها وضخامتها كأنت تهتز وتتحرك بخفة وسرعة ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ (القصص: ٣١)، أى حية صغيرة، فما كان من موسى إلا أن انطلق هاربًا خوفًا منها، ولم يلتفت إلى جهتها وهى خلفه، كناية عن شدة التصميم على الهروب والإسراع فيه، خوفًا من أن تلحق به، فناداه الله تعالى:

---

(١) البخارى: (٢٦٨٤). وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره عدة آثار مرفوعة منها: عن أبى ذر قال: قال لى رسول الله ﷺ يا أبا ذر، **(إن سئلت أىَّ الأجلين قضى موسى فقل: خيْرَهما وأوناهما)**. وأخرج عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: أى الأجلين قضى موسى فقال: أَتَمَّهُمَا وأكْمَلُهما) تفسير أبى حاتم الرازى رقم: ١٦٨٦٤ – ١٦٨٦٥. والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٢ / ٤٤٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ﴾ (القصص: ٣١)، وتقدّم جهة الحيّة ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ (القصص: ٣١)، منها، واطمأن بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ (القصص: ٣١)، وذلك لأن النفس لا تنسى الخوف بسرعة وسهولة. ثم أمره سبحانه بقوله: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ (القصص: ٣٢)، أمره الله تعالى أن يدخل يده فى شق ثوبه، ثم يخرجها فى إذا هى بيضاء بياضًا خارقًا للعادة، بخلاف البياض الذى يكون من سوء ومرض نحو البرص وأثر الحريق وغيره، وأمره بقوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ (القصص: ٣٢)، هو العضد، أو اليد كلها[(١)]. وفى تفسير هذه الجملة: رأيان؛ أحدهما: على أن المراد أن يدخل يده مرة أخرى فى الرهب وهو الكم[(٢)] لتعود إلى لونها الطبيعى كما كانت وثانيهما: على أن المراد أن يضم يده إلى صدره كى يذهب خوفه من الحية أو خوفه من آل فرعون[(٣)]، والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أن موسى عليه السلام أُمِرَ إذَا خاف من شىء أن يضم يده إلى صدره ووعده أنه إذا فعل ذلك ذهب عنه الخوف[(٤)] كانت العصا واليد آيتين عظيمتين،

---

(١) لسان العرب الابن منظور، مادة (ج ن ح).

(٢) قال ابن كثير: وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يحيره أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة، [٦ / ٣١٤].
ومعالم التنزيل الليغوى، (٦ ، ٢٠٧) ولباب التأويل: للخارن (٣/ ٤٠٥).

(٣) تفسير القرآن العزيز: محمد بن عبد الله بن أبى زمنين (٣/ ١٩٣).

(٤) خوف الأنبياء من ظلم قومهم لا ينقص من قدرهم شيئًا، إذا أنهم لم يتركوا الدعوة خوفًا، وإنما استقروا عن الأمر كيف يكون؟ كما قال النبى ؟؟ فى الصحيح [مسلم ٢٨٦٥]: «وإن الله أمرنى أن أُحرِّق قريشا، فَعلت ربِّ إذًا يتلغوا رأى فيدعوه خُبْزَة». وكأن مراد الأنبياء عليهم السلام الاستفسار عن الأمر، هل يجرى على العادة أم لا؟ فإن كان يجرى على العادة وطَّنُوا أنفسهم على الموت فى سبيل الله، وإلا ذكر لهم الأمر الخارق فيكون بشارة لهم ليمضوا فى الأمر على بصيرة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (المائدة: ٦٧)، نظم الدرر (١٤ / ٢٨٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبرهانين ساطعين من الله تعالى أظهرهما على يد موسى وأرسله بهاتين الآيتين إلى فرعون وملئه بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى، وهنا تذكر موسى النفس التى قتلها فخاف أن يقتلوه بها فطلب من الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارون(١)، (ردءًا) أى زيادة(٢) كى يعينه على مشاق الرسالة ويقف معه عندما يكذبه المعاندون فيشرح لهم إذ هو أفصح لسانًا من هارون. استجاب الله لطلب موسى فأرسل معه أخاه هارون عليهما السلام(٣) ووعده الحماية والتأييد وبالنظر له ولأتباعه.

❁ ❁ ❁

(١) قال بعض السلف ليس أحد أعظم منه على أخيه من موسى على فرعون عليهما السلام فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيا ورسولاً معه إلى فرعون، ابن كثير: (٦ / ٣١٥).

قال البقاعى: فاشترط لنفسه حتى رضى، وتلك كانت عادته، ثباتا وحزمًا، وحلمًا وعلمًا ألا ترى إلى ما فعل معنا عليه السلام والتحية والإكرام ليلة الإسراء من السؤال فى تخفيف الصلاة.

(٢) وقد سأل موسى ربه أن يحلل عقدة لسانه قبل أن يطلب وزارة أخيه ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ﴾ (طه: ٢٧ – ٣٠).

(٣) فى سبب اختيار الله سبحانه سنّ الأربعين لبعثة الأنبياء حكمة عظيمة؛ لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحب قوية مستكملة فيكون الإنسان متجذبًا إليها فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت هذه القوى فى الانتقاص والقوى الفعلية فى الازدياد فيكون الرجل أكمل ما يكون، فلهذا السر اختار الله هذا السن للوحى، الرازى [٢٤/ ٩٩٩] وهذا السنّ هو بداية الانتكاس فى الخلق ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ ﴾ (يس: ٦٨)، فلا يزاد بعدها فى القوى الظاهرة ولا الباطنة شىء بل يبدأ فى التناقص، إلا الأنبياء فإنهم فى هذه السن يؤتون من بحار العلوم بغير اكتساب، ويؤتون من قوة الأبدان كذلك ففى وقت انعكاس غيرهم يكون ازديادهم الثقافى [١٤ / ٢٥٤].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعـــــبر

- الرسالة اصطفاء واختيار من الله تعالى، ولا يمكن تحصيلها إلا بذلك.

- يأتى الوحى بالرسالة بغته كما نودى موسى بجانب الطور، وكما نودى محمد ﷺ فى غار حراء، وكلاهما اعتراهما الخوف منها، ثم ثبته الله تعالى[١].

- فيه إشارة إلى أن الله تعالى سيحمى محمدًا ﷺ من أعدائه كما حمى موسى وهارون عليهما السلام من فرعون وأتباعه[٢].

- أكرم الله موسى عليه السلام بالرسالة، وكلفه أداء الأمانة، وأظهر على يديه الآيات المعجزات، وأمنه من خوفه، وأمره بالذهاب بالآيات إلى فرعون وملئه لدعوتهم وأرسل معه أخاه هارون مؤيدًا ومعينًا، وتكفل بحمايتهما ورعايتهما، وعدهما وأتباعهما بالنصر والتأييد.

❁ ❁ ❁

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور، (٢٠ / ١٨٨).

(٢) المرجع السابق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بدء الدعوة وتكذيب فرعون وجنوده لها ونزول العقاب بهم

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (القصص: ٣٦ - ٤٢)

تمهيـــــد

بعد تكليف الله موسى ومعه هارون عليهما السلام بالرسالة، انطلق موسى بالآيات البينات التى أظهرها الله على يديه إلى فرعون وملئه، فكذبوا واستكبروا، فعذبهم الله تعالى، وكانت عاقبتهم كعاقبة كل ظالم.

❁ ❁ ❁

المعنـــــى

انطلق موسى ومعه أخوه هارون عليهما السلام مستجيبًا لنداء الله تعالى وتكليفه، عائدًا إلى مصر، إلى فرعون وملئه، ومعه الآيات البينات التى أظهرها الله على يديه، العصا واليد البيضاء.

وقد كان توقع موسى عليه السلام لموقفهم من الدعوة صائبًا، فقد كذبوه واتهموه بالسحر والافتراء، وتمسَّكوا بالشبهة المتكررة وهى تقليد الآباء.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقالوا عن معجزاته: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ (القصص: ٣٦)، أى: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما يستطيعوا[١].

وقد اختصرت السورة تفاصيل المواجهة بين موسى وفرعون، وركزت على إبراز جانب العلو والاستكبار عند فرعون وملإه، وجانب القدرة الإلهية على الانتقام من الظلمه وهم أوج كبريائهم وطغيانهم.

ويظهر جانب الغش والخداع عند فرعون وملئه، حيث أظهر نفسه **بمظهر المنصف الباحث عن الحق**، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ (القصص: ٣٨)، وحتى يمعن فى التشكيل أمر وزيره أن يبنى له بناء عاليا كى يصل إلى إله موسى الذى يدعوهم إليه، رغم أنه يظن أن موسى عليه السلام من الكاذبين حاشا موسى عليه السلام.

وهنا نلحظ جانبا آخر من **نفسية فرعون وطريقة خداعه لشعبه**، وهى تشبه كثيرا ما يفعله الجبابرة والطغاة فى كل زمان، ويبدو أن فرعون لجأ إلى هذا الأسلوب بعد فشله فى المواجهة الأولى مع موسى والتى مرت فى أول سورة الشعراء[٢].

والعجيب أن تصرف فرعون هذا ينجم مع نفس الحماقات التى قام بها من قبل، حيث ظن هنا أنه يستطيع أن يبنى بناء يصل إلى السماء، ثم على تقدير وصوله إلى السماء وصعوده على ظهرها على عظمتها فهل كان يظن أنه سيتمكن من منازعتها بابنها وخالقها[٣]؟

---

(١) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٣١٦). سورة الشعراء الآيات (١٦/ ٣٥).

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٦ – ٣٥.

(٣) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٢٩٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهكذا يواصل فرعون وجنوده استكبارهم فى الأرض بغير الحق، غافلين عن الحياة الآخرة، ظانين أن لا بعث ولا حساب، فحق عليهم من الله العذاب، فأخذه الله تعالى وجنوده وقذفهم فى اليَّم كما تقذف الحجارة الصغيرة، وجعلهم عبرة لأولى الألباب وهكذا (**ذهبوا فى طرفة عين كأن لم يكونوا، وغابوا عن العيون كأن لم يبينوا، وسكتوا بعد ذلك الأمر والنهى فصاروا بحيث لم يبينوا، فليحذر هؤلاء الذين ظلموا إن استمروا على ظلمهم أن ينقطعوا ويبينوا**)[١].

وهكذا كانت عاقبة الظالمين، حيث جعلهم الله أئمة فى الظلم والفساد، والدعوة إلى النار، أى: صاروا ولاة[٢]، وقادة فى ذلك، وأصبحوا مثلا يوصم به أهل الظلم والضلال، والكفر والطغيان، دون أن ينفعهم أتباعهم وأعوانهم، بل يتبرّؤون منهم يوم القيامة، وربما تبرؤوا منهم فى الدنيا، وأظهروا الندامة، واستحقوا التابع والمتبوع جميعا اللعنة والفضيحة فى الدنيا ويوم الأشهاد، نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر

- فى الآيات دليل على أن ما أقيم عليه البرهان فهو حق، وإن لم يسبق به قول متقدم، وأن الرادّ لما لم يسيق به قول متشابه بهؤلاء القوم[٣] فهؤلاء حكموا العادات والتقاليد القديمة على الحقائق والبراهين القائمة[٤].

---

(١) تعبير أدبى فى نظم الدرر للبقاعى: (١٤ – ٢٩٧ – ٢٩٨).

(٢) تغير القرآن من كتاب الجامع لابن وهب، (٢ / ١٦٤).

(٣) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن على الكرجى القصاب (٣ / ٥٦٥).

(٤) نظم الدرر: للبقاعى، (١٤/ ٢٩٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- تتشابه أحوال أهل الضلال فى الإعراض والاستكبار، وإنكار الحق وتكذيب أهله[١].
- الإمامة قد تكون فى الشر، كما تكون فى الخير، لأن معناها أن تصير المرء قدوة يؤتم فيما يقول ويفعل[٢].
- تتشابه أحوال أهل الضلال فى طلب المحال، كما أراد فرعون أن يطلع إلى الإله، وطلب مشركون قريش أن يروا الله تعالى جهرة، وتتشابه أحوالهم فى إنكار البعث[٣].
- خسر فرعون المواجهة والمحاججية مع موسى عليه السلام، ولجأ إلى الخداع والمراوغة، وتكبر وطغى، فعاقبه الله تعالى عقابًا شديدًا، وأغرقه وجنوده فى اليم، وهكذا: وهكذا هى عاقبة الظالمين، كما جعل فرعون مثلاً يضرب لكل مجرم وجبّار وطاغية، تتنزّل اللعنات عليه وعلى أتباعه كل حين ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ (القصص: ٤٢).

❁ ❁ ❁

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور، (٢٠ / ١٢٥ – ١٢٦).
(٢) نكت القرآن الدالة على البيان: محمد بن على الكرجى القصاب (٣ / ٥٦٩).
(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور، (٢٠ / ١٢٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إيتاء الكتاب المقدس لموسى عليه السلام والقرآن الكريم لمحمد ﷺ وتكذيب الكفار لهما

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (القصص: ٤٣ - ٥٠)

تمهيـــــد

بعد قصة المواجهة مع فرعون وإغراقه وملإه فى اليم تتجه الآيات بالحديث إلى إيتاء التوراة لموسى، والمنة على بنى إسرائيل به، وتربط ذلك بإيتاء القرآن الكريم لمحمد ﷺ والمنة على مشركى العرب به، وتتحدث الآيات عما لاقاه الكتابان التكذيب من الكفار.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المعنـــــى

تبدأ الآيات بواو القسم مع (قد) التى جاءت هنا تفيد التحقيق أو تفيد التوقع[١] وذلك لأن حال كفار قريش كحال المنكر لحقيقة القدرة الإلهية على نصرة المستضعفين، إذ كذبوا النبى ﷺ وعذبوا أصحابه، وأنكروا كتابه، فاحتاج إلى تأكيد الخبر بالقسم.

والتوراة هى أول كتاب أنزل من الله تعالى متضمنا لتفاصيل الفرائض والأحكـــام ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٤)، ولهذا عبّر عنها بلفظ (الكتاب). جاء نزول التوراة بعد أن أهلك الله القرون الأولى من المكذبين من قوم نوح إلى فرعون وملئه، وفى السياق إشارة إلى أنه لا يعُم أمة من الأمم الهلاك بعد إنزالها[٢]، وفيه إشارة بالوعيد والتهديد للمكذبين الظالمين، كى يتذكروا ما جرى للسابقين[٣].

---

(١) اقتصر البقاعى على معنى التوقع هنا، وعلله بأن العرب وإن كانوا تصدقيه لما وقع فى المنة على بنى إسرائيل بإنقاذهم من فرعون وإنزال الكتاب عليهم فإنكارهم بحال بإنكار التمكين لأهل الإسلام والتكذيب بكتابهم حال المكذب بأمرين إسرائيل (نظم الدرر (١٤ / ٣٠٠ – ٣٠١).

(٢) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٣٠١).

(٣) ذكر البقاعى هنا أن فى قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٣)، إشارة إلى أنه ليس فى الشرائع ما يخرج عن العقل، بل متى تأمله الإنسان تذكر به من عقله ما يرشد إلى مثله. (١٤ / ٣٠٢). وقد يفهم من العبارة غير ما قصد البقاعى، فهو لا يقصد استقلال العقل بمعرفة ذلك، وإنما دلالته على ما جاء به الوحى وقد صرح بهذا فى موضع آخر (١٤ – ٣٠٦ – ٣٠٧) فقال إنهم: (إذا قبلوا ما جئت به وتديروه أذكرهم إذكارًا ظاهرا... ما فى عقولهم من شواهده وإن كانت لا تستقل بدونه).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهنا تقرر الآيات حقيقة رسالة محمد ﷺ الذى جاء بالقرآن العظيم وقال إنه من عند الله تعالى، وأخبر فيه عن أحوال الأمم السابقة كقصص موسى، وأخبار موسى وفرعون، وما جرى بينهما قبل البعثة وبعدها، وهذه الأخبار لم يكذبها الأحبار من بنى إسرائيل، ولم يعرفها النبى ﷺ من قبل الوحى، فدل دلالة قاطعة للمنصف على أن القرآن من عند الله تعالى فما كان النبى ﷺ بجانب الجبل عندما بعث موسى بالرسالة، ولم يكن ممن شهدوا نزول التوراة على موسى[(١)]، كما لم يكن ممن شهد غير ذلك من المواقف فى حياة موسى عليه السلام ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ (القصص: ٤٥)، كما لم يأخذ هذه المعلومات ممن شهدها أو عرفها[(٢)].

بل إن هذه الأخبار قد حرّفت وبدّلت، ونُسى بعضها على مرور الأيام والفروق، فلم يبق إلا أن يكون النبى محمد ﷺ أخذه من الخالق سبحانه وتعالى الذى أرسله وأنزل عليه القرآن رحمة من عنده لينذر به[(٣)].

ثم بينت الآيات جانبا من حكمة إرسال الأنبياء، وهو قطع حجة الكفار وتعللهم عند نزول العذاب بعد مجىء الرسول إليهم وتباعد الفترة بينهم وبين الرسل السابقين وهى حجة باطلة وكاذبة فى نفس الوقت، فأهل الضلال يتشبثون بالشبهات لرد الحقائق والآيات، ولو أرادوا الإيمان لكفتهم آية واحدة، بل لو عادوا إلى نظرتهم لعرفوا الحق واتبعوه دون لجاج.

---

(١) مع السبعين الذين حضروا مع موسى عليه السلام كما فى قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ (الأعراف: ١٥٥).

(٢) وهو ما يعرف بالإعجاز بأخبار الأمم الماضية.

(٣) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، (٦ – ٣٢٠ – ٣٢١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولهذا انتقل الحديث إلى بعثة النبى ﷺ والحق الذى جاء به متضمنًا آيته العظمى وهى القرآن الكريم، فماذا فعلوا لما جاءهم الحق؟ كفروا به كما كفر من قبلهم، ولجؤوا إلى حيلة أخرى وهى المقارنة بين آيات موسى، وآيات النبى محمد ﷺ وطالبوا بآيات شبيهة لآيات موسى عليه السلام ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ (القصص: ٤٨).

وهذا طلب يقصد به المجادلة فقط، فقد كفر الناس بموسى رغم كثرة آياته وتنوعها، واتهموه بالسحر..

فاتباع الناس للأنبياء ليس مرتبطًا بكثرة الآيات، بل بنوعيتها كما قال النبى ﷺ: «مامن الأنبياء نبى إلا أعطى ما فعله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[(١)] فمعجزة النبى عقلية باقية إلى قيام الساعة بخلاف معجزات موسى عليه السلام التى انقطعت فى وقتها.

وهكذا يكون موقف الطغاة من الدعوة والدعاة فى كل الأوقات، ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ (القصص: ٤٨)، أى: تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر[(٢)]. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ (القصص: ٤٨)، حيث وصفوا القرآن والتوراة بالسحر كما رُوى عن ابن عباس وغيره[(٣)]، أو اتهموا موسى وهارون عليهما السلام بالسحر، أو المعنى أنهم اتهموا موسى ومحمد عليهما السلام بالسحر والاتفاق على ما جاءا به، وهو الأقرب والأليق بالسياق[(٤)].

---

(١) متفق عليه: البخارى (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٦/ ٣٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم مسندًا: لابن أبى حاتم تفسير سورة القصص(١٦٩٥٩).

(٤) نظم الدرر: للبقاعى، (١٤/ ٣٠٩). تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، (٦/ ٣٢٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذه التهمة باطلة من كل وجه إذ أن مجرد تظاهر السحرة واتفاقهم لا يجعل الأمر معجزًا خارقا للعادة، ولكان تظاهر سحرة فرعون معجزًا لا يقدر موسى عليه السلام على رده، وتنزّلاً معهم ذا المجادلة، وإظهارًا لعجزه، وكذبهم فى ادعائهم قال الله تعالى لنبيه أن يأمرهم بالإتيان بأى كتاب يزعمون أنه من عند الله تعالى ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ (القصص: ٤٩)، أى من التوراة التى جاء بها موسى عليه السلام والقرآن الذى جاء به محمد ﷺ كى أتبع الكتاب وأترك التوراة والقرآن ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (القصص: ٤٩)، أن موسى ومحمد عليهما السلام ساحرين ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ (القصص: ٥٠)، يا نبى الله ولهذا الطلب المنصف ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (القصص: ٥٠)، ولا يبحثون عن الحق والهدى، فيسيروا فى الضلال والعمى.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠).

❁ ❁ ❁

دروس وعبر

- بيان عاقبة أصحاب الحق، وعقاب أصحاب الباطل، فهنا إكرام موسى بالتوراة وإهلاك الكافرين المعاندين.
- الإعجاز بأخبار الغيب الماضية من الأدلة على صدق النبى ﷺ وأن القرآن الكريم من عند الله تعالى، حيث لم يشهد النبى ﷺ هذه الأحداث، ولم يسمعها من أحد وجاء بها مطابقة للواقع.
- إرسال الرسل لحكم عظيمة، منها: تبليغ شرع الله، وإقامة الحجة على الناس، كى لا يقولوا ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] (القصص: ٤٧).

(١) التفسير المنير: للزحيلى (١٩ / ١١٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- اللجاج بالباطل والمغالطة هى من صفات الكافرين المعاندين، إذ بعد مجىء الحق إليهم على لسان النبى ﷺ ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ (القصص: ٤٨)، رغم كفرهم بما جاء به موسى من الآيات.

- إن اتباع الهوى هو أقصر طريق إلى الضلال، وإن من صفات المؤمنين مخالفة هوى النفس ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠).

- فى الآيات دليل على ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم، ولو لم يكن قبحه لم يكن سببا[١] لذلك.

- خطة الكفار واحدة فى كل زمان، ودأبهم المكابرة، والعناد والإنكار، وطلب المعجزات المادية المحسوسة، وإنهم بالرغم من حدوثها لن يؤمنوا؛ لأن المكذب بمعجزة واحدة مكذب بكل المعجزات[٢].

- حجة الكفار فى تكذيب كتب الله تعالى ورسله واحدة أيضًا وهى الاتهام بأن تلك الكتب سحر مختلق، وأولئك الرسل سحرة مبطلون، بل إنهم متواطئون على السحر والتدجيل ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[٣] (الكهف: ٥).

- قسمت الآية الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع لهواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة وعدل عنها إلا خلافها فقد اتبع هواه[٤].

---

(١) بدائع التفسير: ابن قيّم الجوزية (٣ – ٣٥٠ – ٣٥١).
(٢) التفسير المنير: الزحيلى، (١٩ / ١٢١).
(٣) التفسير المنير: للاصلى (١٩ / ١٢١).
(٤) بدائع التفسير: لابن قيم الجوزية، (٣ / ٣٥١ – ٣٥٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- فى الآية دليل على أن الهوى قد يكون فى الحق أيضا إذا كان فيه هدى عن الله تعالى وهدى الله فى هذا الموضع حجته، وهى كتابه ورسوله[١] ﷺ.
- إقامة الدليل على إعجاز القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى عبر تحدى الجميع لأن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى أو فيه هداية وإرشاد، فيكون أهدى من التوراة، والقرآن، فلم يفعلوا، وقد صرح بالتحدى فى آيات أخرى كثيرة[٢].
- هنا يتواصل التأييد والكرم الإلهى لأتباعه، فيؤتى موسى التوراة فيها هدى ونور، ويؤتى محمدا ﷺ القرآن الكريم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨)، ويتيم الدلائل على صدق النبى ﷺ فيما جاء به عن ربه، كما تهدى الآيات الذين يعرضون عن الهدى، ويتبعون الهوى.

❁ ❁ ❁

(١) نكت القرآن الدالة على البيان: محمد بن على الكرجى القصاب (٣ / ٥٧٠).
(٢) التفسير المنير: الزحيلى (١٩ / ١٢٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإشارة إلى مؤمنى أهل الكتاب وتحذير كفار قريش من الإعراض والركون إلى الدنيا، مع تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من الأمن والخيرات

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ (القصص: ٥١ - ٦١)

تمهيـــــد

بعد أن بين الله تعالى صدق النبى ﷺ وأنه جاء بالحق من الله تعالى ذكر هنا نزول القرآن الكريم ووصوله إليهم تذكيرًا لهم بما فى الفطرة من توحيد الله وعبادته، كما نبّه إلى استجابة أهل الكتاب لهذا القرآن الذى جاء مصدقا لما بين أيديهم من خبر الأمم السابقة، وحذر كفار قريش من التكذيب والإنكار مع ما أنعم الله به عليهم من الأمن والخيرات، حتى لا يلاقوا مصير القرى التى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كفرت بأنعم الله، وأعترت بمتاع الدنيا وزخرفها وزينتها، ونسوا أن ما عند الله خير وأبقى، ورغّبهم فى اتباع النبى ﷺ للحصول على ما وعد الله به الصالحين من الجنة ونعيمها يوم القيامة بدلا من الحساب والعقاب.

المعانى

يبدأ هذا المقطع بواو القسم مع (قد) التى جاءت هنا تفيد التحقيق، وذلك لأن كفار قريش برفضهم اتباع النبى ﷺ رغم كل الأدلة والبراهين التى جاءتهم وأخبار الغيب التى وصلتهم كانوا كأنهم مفكرون لأن يكون جاءهم شىء من ذلك[1]. فأكد الخير بالقسم. ونبه إلى وصول القرآن الكريم إلى قريش خاصة وللناس عامة، عبر نزوله على النبى ﷺ لعلهم يتذكروا ويعودوا إلى فطرتهم التى جعلت على عبادة الله تعالى وتوحيده.

ثم جاءت الآيات التالية كجواب عن سؤال تقديره: هل تذكروا؟ لتشهد باستجابة الصادقين من أهل الكتاب لهذا القرآن فهم أهل كتاب وعلم، وقد جاء القرآن مصدقا لما بين أيديهم، من خير الأمم السابقة، كما تسجل الآيات شهادتهم للقرآن الكريم بأنه الحق من الله تعالى، مما يدل على صدق إسلامهم لله تعالى فيما مضى، وتسليمهم له فيما قضى، فعندما وصلتهم الرسالة الجديدة من الله تعالى على لسان خاتم الأنبياء ﷺ استجابوا لها وآمنوا بها، كما استجابوا وآمنوا من قبل، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ (القصص: ٥٣).

ولهذا استحقوا ﴿أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ (القصص: ٥٤)، لإيمانهم بالكتابين: التوراة والقرآن، كما قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ...» الحديث[2].

---

(١) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٣١٣).

(٢) الحديث متفق عليه، البخارى (٩٧) ومسلم (١٥٤).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أو لأنهم آمنوا بالنبى ﷺ إيمانا غيبيًّا قبل مجيئه، ثم آمنوا به عندما شاهدوه. وصبروا على ما عانوه جراء تبديل الكتاب والرسول والتشريع أو غير ذلك. ثم تذكر الآيات بعض لوازم الصبر الحقيقى، وصفات الصادقين من أهل الكتاب من درء[١] السيئة من الأقوال والأفعال، ودفعها بالأقوال والأفعال الحسنة، ودفع الأموال للمحتاجين... ولما ذكر أن بذل ما تضمن به النفوس من فضول الأموال من أمارات الإيمان، أتبعه بذكر أن منع ما تبذله الألسن فى فضول الأقوال هو من علامات العرفان[٢]، لذا وضعهم الله تعالى بالانصراف ولما ذكر أن يذل ما تضن من النفوس من فضول الأموال من أمارات الإيمان أتبعه بذكر أن منع ما تبذله الألسن من فضول الأقوال وهو من علامات العرفان لذا وصفهم الله تعالى بالانصراف عن اللغو وفضول اللسان وما لا ينفع من الكلام[٣] .

قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ (القصص: ٥٥)، أى: لا يخالطون أهل ولا يعاشرونهم، بل ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾[٤] (الفرقان: ٧٢)، ثم يعد إعراضهم عنه قالوا: - ربما على سبيل الموعظة والنصح لأصحاب اللغو - : ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾ (القصص: ٥٥)، لا تجازون على أعمالنا، ولا نسأل عن أعمالكم، **(لأن ذمكم لنا لا ينقصنا شيئًا من أجرنا،**

---

(١) الدرء: هو الدفع: ابن منظور، لسان العرب مادة (درأ).

(٢) تعبير أدبى: للبقاعى، فى نظم الدرر (١٤ / ٣١٦).

(٣) وهو نفس الوصف الذى وصف به المؤمنون من أمة نبيا محمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ (الفرقان: ٧٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، (٦ / ٣٢٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولا الاشتغال برده ينفعنا[١]، ثم أتبعوا ذلك بإلقاء السلام على أصحاب اللغو تطمينًا لهم أن إعراضهم لا يعنى أنهم ساعون فى أذيتهم، وإنما بعدًا عن الجاهلين وأعمالهم).

وبعد الحديث عن إيمان الصادقين من أهل الكتاب تنتقل الآيات إلى تقرير حقيقة أزلية ربانية هى أن الهداية بيد الله تعالى، وليست بيد النبى ﷺ وأن الله تعالى أعلم بمن كتب لهم الهداية سواء من قريش، أو أهل الكتاب، أو غيرهم.

وقد جاءت هذه الآية فى هذا السياق لأن المعلوم أن العاقل يسعى فى منفعة أحبابه، وأقرب الناس إليه أولاً، ويحرص على ذلك، وبما أن الحديث قد سبق عن إيمان أهل الكتاب، ومعلوم أن أكثر قريش لم يؤمن وقتها، فلربما ظن ظان أن هذا بسبب تقصير من النبى ﷺ جاشاه – فى الدعوة أو يذل الجهد[٢] فأتت هذه الآية لتقرر هذه الحقيقة المطلقة دفعا لهذه الشبهة، وتسلية للنبى ﷺ وذلك قبل الانتقال إلى تحذير كفار قريش من تكذيب النبى ﷺ وإنكار القرآن... والهداية المنفية فى الآية هى تكون بخلق الإيمان فى القلب أو قلب العبد، فهذه ليست إلا لله تعالى، وأما هداية الإرشاد والبيان فهى مثبتة لكل من قام بها، بل هى أساس إرسال الأنبياء كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢).

وقد ورد فى سبب نزول الآية: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: .. أى عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل، وعبد الله بن أميّة: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شىء كلمهم به: على ملة عبد المطلب.

---

(١) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٣١٦).

(٢) نظم الدرر: البقاعى (١٤ / ٣١٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال النبى ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنه» فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (التوبة: ١١٣)، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[1] (القصص: ٥٦).

ثم تتابع الآيات نقل أقوال قريش للنبى ﷺ، فيعد قولهم السابق: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ (القصص: ٤٨)، يقولون هنا: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ (القصص: ٥٧)، أى إننا نخاف إذا اتبعناك وآمنا بك أن تتخطفنا العرب لقلتنا وكثرتهم والخطف سرعة أخذ الشئ[2]، وقولهم هذا خلاف الواقع، فقد أنعم الله عليهم بالأمن والخيرات فى حلهم وترحالهم، مع كثرة قطاع الطرق والعداوة بين العرب بل الحق أن العرب سوى قريش كانت تعانى من ذلك كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٧)، أما قريش فكانت آمنة بسبب البيت الحرام.

ولهذا قال سبحانه فى سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾ (قريش: ١ - ٤).

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ (القصص: ٥٧)، وقد أمر الإسلام بالأمن فى الحرم حتى الشجر، والطير، كما هو معلوم.

---

(١) متفق عليه، البخارى (٣٣٨٨٤) واللفظ له. ومسلم (٢٤).

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (خ ط ف).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبالإضافة إلى الأمن وهو النعمة العظمى، فقد أكرم الله تعالى قريشًا بجلب الخيرات من ثمار وغلال وأنعام إليها بسبب الحرم أيضا. ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (القصص: ٥٧)، رزقا من الله تعالى لهم وبشارة بالنبى ﷺ [١].

وبعد الامتنان عليهم بالأمن والخيرات حذرهم الله تعالى من الهلاك والويلات بسبب البطر والطغيان فى النعمة[٢] وعدم شكرها وإنكارها، وحذرهم من ملاقاة مصير القرى التى كفرن بأنعم الله فعصوا الله الذى خولهم فيها فخالفوا أمره، وأنساهم الكبر بما أعطاهم ذكره[٣]، واغتروا بمتاع الدنيا وزينتها، ونسوا أن ما عند الله خير وأبقى، فجاءهم العذاب، وفاجأهم فأهلكهم، وبقيت، وراءهم مساكنهم، ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (القصص: ٥٨)، من قبل بعض المسافرين.

والسائحين كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (النحل: ١١٢ - ١١٣)، فلم يظلمهم الله سبحانه وتعالى شيئا بل أرسل إليهم الرسل، وأظهر الآيات، وأنذرهم وأمهلهم ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ (فاطر: ٣٧)، فإن الله تعالى أخذ على نفسه ألا يهلك القرى إلا بعد أن يبعث فى مكة[٤] المكرمة وهى أعظمها شرفا، وأشرفها رسولًا يدعو

(١) نظم الدرر: للبقاعى (١٤ / ٣٢٥).
(٢) ابن منظور: لسان العرب مادة (ب ط ر).
(٣) التعبير للبقاعى: نظم الدرر (١٤ / ٣٢٨) بتصرف.
(٤) القرآن العظيم: ابن كثير (٦ / ٣٣٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أهل القرى إلى عبادة الله تعالى[١]. ويتلو عليهم آيات الله سبحانه، فإن هم أبو أو ظلموا أهلكهم الله تعالى بعد أن يعم ظلمهم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ (القصص: ٥٩).

ثم تقرر الآيات حقيقة أخرى يفقهها العاقلون، وغفلت عنها قريش عندما زعموا أن اتباعهم للنبى ﷺ سيؤدى إلى أذيتهم من قبل باقى العرب، ويفضل عنها كثير من الناس وهى: أن الحياة الدنيا محطة مؤقتة، ومتاعها وزينتها زائلة، وما عند الله أفضل وأحسن بالإضافة إلى كون دائما لا ينقطع فلا يمكن لعاقل أن يوازن بينهما، فكيف بالذى يفضل الدنيا على التى هى خير وأبقى.

ولهذا ختمت الآية بالإنكار المغلظ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص: ٦٠)، كأنه قال: على افتراض أن اتباعكم للحق الذى جاء به محمد ﷺ سيؤدى إلى حصول الأذى لكم وذهاب بعض متاع الدنيا وزينتها عنكم أفلا تعقلون أن ما سيكون لكم عند الله تعالى بالمقابل هو خير وأبقى؟

ثم أى الفريقين خير: الذى وعده الله وعدًا حسنًا سيلاقيه يوم القيامة يقينات أم الذى ركن إلى الدنيا واستمتع بها، وبطر نعم الله تعالى مع أنه سيُحضر يوم القيامة للحساب على ما فعل؟ ففى هذه الآية ترغيب لهم فى اتباع النبى ﷺ للحصول على الوعد الحسن الذى وعد الله به أتباعه. وفى الآية أيضا تهديد ضمنى لهم من يوم الحساب والعقاب.

❁ ❁ ❁

(١) يحتمل سياق الآية أن يكون المراد عامًّا كما يحتمل أن يكون المراد بعثة النبى ﷺ فى مكة أم القرى ولعله الأقرب لقول الله تعالى بعده: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ (القصص: ٥٩)، الكشاف للزمخشرى (٣/ ١٧٥).

وتفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦ / ٣٣١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر

- إذا كان الإيمان بالله صحيحًا منسجمًا مع الوحى الثابت الصحيح، سهل النقاء رافدى الإيمان، كما آمن الصادقون من أهل الكتاب بنبوة محمد ﷺ وبالقرآن الكريم[١].
- للإيمان لوازم وتوابع، من عمل صالح، وصبر وإنفاق فى سبيل الله تعالى.
- من شأن المؤمن الصادق الابتعاد عن اللغو الذى لا فائدة فيه، وتجنب الجاهلين والاشتغال بصالح الأعمال.
- وفى الآيات دليل على أن من آمن بمحمد ﷺ وكان قبل ذلك على شريعة من نص لم يغير ولم يبدل فآمن به، وبما جاء به، ضوعف له الأجر مرتين[٢].
- الهداية بخلق الإيمان فى القلوب هى من خصائص الله تعالى، يهدى من يشاء ويضل من يشاء سبحانه، وأما هداية الأنبياء والدعاة فهى هداية البيان والإرشاد.
- وفى الآية حجة على المعتزلة والقدريّة[٣].
- البطر فى العيش وكفر النعمة يستجلب غضب الله تعالى وعقابه، ويكون ذلك سبب ظلمهم وبغيهم وطغيانهم.
- فى الآيات دليل على أن النبى محمد ﷺ المبعوث من أم القرى هو رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٤] (الشورى: ٧).

---

(١) التفسير المنير: الزحيلى، (١٩/ ١٢٨).
(٢) نكت القرآن الدالة على البيان: محمد بن على الكرجى القصاب (٣/ ٥٧١).
(٣) المرجع السابق (٣/ ٥٧١ – ٥٧٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٦/ ٣٣٠ – ٣٣١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- لا موازنة عند العاقل بين متاع الدنيا الزائل، وخير الآخرة الدائم، قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر ماذا يرجع إليه»(١).
- سيقف الناس يوم القيامة أمام ربهم فيحاسبهم ويجازيهم، وسيحضر الذين استهوتهم الدنيا ولذائذها فأنستهم الآخرة والعمل لها.

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٨).

- الحديث هنا عن طائفتين من الناس للقرآن العظيم حيث كذبت به قريش، وآمن به الصادقون من أهل الكتاب.. وبيان لبعض صفات المؤمنين الصادقين وحديثها عن عقوبة البطر والكفر بنعم الله تعالى، وحث الناس على عدم الانسياق وراء متاع الدنيا القليل الزائل، والسعى وراء نعيم الآخرة الدائم.. كما تمهد لعاقبة الصنفين من الناس يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٨٥٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

موقف المشركين يوم القيامة، ودعوتهم للتوبة وتوحيد الله تعالى قبل فوات الأوان

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (القصص: ٦٢ - ٧٥)

تمهيـــــد

ختمت الآيات السابقة بالترغيب فيما عند الله من الخيرات، والتهديد من الوعيد والويلات، وافتتحت هذه الآيات بموقف من مواقف يوم القيامة لتأكيد المعنى الذى سبق كما ختم آخرها بموقف من مواقف يوم القيامة، وتوسطها موقف ثالث.. كما تضمنت تأكيد الترغيب الذى مرَّ بالدعوة إلى التوبة والعمل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصالح قبل فوات الأوان ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ (القصص: ٦٧)، والتحذير من مصير الكافرين الذين سيعلمون الحق بعد فوات الأوان، ولن ينفعهم ما أشركوا بالله شيئًا ﴿ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (القصص: ٧٥).

❁ ❁ ❁

المعانـــــى

تصور هذه الآيات مواقف من مواقف يوم القيامة تدور كلها حول إحضار الكافرين المنكرين للمساءلة، حيث ينادون بعد إحضارهم، فيقول تعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص: ٦٢)؟، أين هم فى هذا اليوم، وماذا لهم من الملك؟

وهنا يجيب الشركاء المزعومون ﴿ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ (القصص: ٦٣)، واستحقوا العذاب، فيقولون فى ذلة وخضوع لا يتناسب مع طغيانهم، وكبريائهم بالباطل فى الأرض: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (القصص: ٦٣)، الغواة التابعون لنا ﴿ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ ﴾ (القصص: ٦٣)، أى: دعوناهم إلى الغىّ[١] والشرك، فغووا غيا مثل ما غوينا نحن، فكما لم نغو إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم[٢]، دون أن يخبرهم أو تكرههم على الغواية، كما يقول إبليس لأتباعه يوم القيامة ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ (إبراهيم: ٢٢)، ثم يتبرؤون منهم بقولهم: ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (القصص: ٦٣)، منهم، ويتبرؤون من عبادتهم لهم بقولهم: ﴿ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص: ٦٣)، وإنما كانوا يعبدون الأوثان، يقولون ذلك خوفا من العذاب، وتهوينا من العقاب.

---

(١) معالم التنزيل: للبغوى، (٦ / ٢١٧). لباب التأويل: للخازن، (٣ / ٤١٠).
(٢) تفسير النفى بهامش لباب التأويل. (٣ / ٤١٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦).

وهنا يعود الخطاب إلى الأتباع الغاوين، فيقال لهم: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ (القصص: ٦٤)، الذين زعمتم، ومن شدة زهدلهم وحيرتهم وتقطع الأسباب بهم يفعلون ذلك، فيدعون شركاءهم! كما يتعلق الفريق بأى شىء يصله ولو كان قشّة طمعًا فى النجاة، يدعون شركاءهم، وشركاؤهم لا يستجيبون! إذ كلاهما مصاب بالحيرة والذهول، وهنا يتمنون أن يتمكنوا من التخلى عن هؤلاء الشركاء المزعومين.

كما جاء فى موضع آخر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ (البقرة: ١٦٧)، وهكذا يصابون بخيبة الأمل والحسرة مع تيقن العذاب ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ (القصص: ٦٤)، أى: فودُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا[1]، وكم كان سهلًا عليهم ألا يقفوا هذا الموقف ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ (القصص: ٦٤)، عندما جاءهم النذير من الله تعالى.

وهنا وبعد المساءلة الأولى تكرر عليهم المساءلة مرة أخرى، وهذه المرة يسألون عن موقفهم مما جاء به المرسلون ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٦٥)؟

لقد جربوا اللجاج والحجاج بالباطل فلم ينفعهم شيئا، ووقع الخصام بين الشركاء أى بين شركاء السوء، ولهذا فإنه فى هذه المؤة لا يردُّون ولا يجيبون فقد ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ (القصص: ٦٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، (٦/ ٣٣٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والأخبار العظيمة التى يمكن أن تنفعهم فى هذا اليوم، والمعنى: عموا عنها من شدة الهول فلم يجيبوا، وأيقنوا بالهلاك، ولم يعد ينفع الكلام والخصام، ولذا ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (القصص: ٦٦)، هذه المرة.

وبعد هذا التهديد والتخويف من هذا الموقف فى يوم القيامة، ومن مصير الكافرين تنتقل الآيات إلى تأكيد الترغيب الذى مر من قبل، والدعوة إلى التوبة والعمل الصالح قبل فوات الأوان ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ (القصص: ٦٧)، وفى قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ (القصص: ٦٧)، إشارة إلى صعوبة الاستمرار على طريق الهدى، إلا بالمجاهدة، كما أنها تدل على أن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شىء[١].

وبما أن سياق الآيات لبيان تفرد الله تعالى بالألوهية، والملك المطلق، والهداية لمن يشاء، فقد أكد هذا المعنى فى الآية التى يعدها فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨)، من الهداية والضلال والضلال، لمن يشاء لاراد لقضائه، وليس لأحد سواه أن يوقع الهداية أو الضلال، أو يختار النبى أو الآيات التى يأتى به ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ٦٨)، ولا لشركائهم المزعومين، فى أن يختار الأنبياء[٢]، أو الآيات التى تظهر على أيديهم، تنزه الله تعالى عن أن يشركه شىء فى اختياره، والاختيار المقصود فى الآية هو الاجتباء والاصطفاء[٣]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: ٦٨).

وتستمر الآيات فى تقريع الكافرين والرد على زعمهم أنه لو جاء محمد بآيات كآيات موسى فإنهم لا يؤمنون، بينما هم فى الحقيقة يخفون الكفر

(١) نظم الدرر: للبقاعى، (١٤ / ٣٣٨).

(٢) تفسير القرآن العزيز: محمد بن عبد الله بن أبى زمنين (٣ / ١٩٩).

(٣) بدائع التفسير، لابن القيم الجوزية (٣ / ٣٥٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويظهرون البحث عن الحق والإنصاف، ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ (القصص: ٦٩)، الله الذى خلقك وتولاك يا نبى الله ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ (القصص: ٦٩)، وتخفى ﴿صُدُورُهُمْ ﴾ (القصص: ٦٩)، من الكذب والمعاندة واللجاج بالباطل ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (القصص: ٦٩)، من ذلك إذ هو سبحانه وتعالى الإله الحق الواحد، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (القصص: ٧٠)، وحده ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ (القصص: ٧٠)، والكمال المطلق ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (القصص: ٧٠)، كما أنه له وحده ﴿ٱلْحُكْمُ ﴾ (القصص: ٧٠)، والقضاء المطلق ولا راد لقضائه، وكلكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٧٠)، فيحاسبكم ويجازيكم.

وقبل الانتقال إلى موقف المساءلة الثالث، تأتى ثلاث آيات مناسبتها للسياق قد لا تكون ظاهرة، وهذه الآيات هى حول رحمة الله تعالى لعباده فى تقلب الليل والنهار، فبعد أن ذكر الله تعالى تفرده بالخلق والاختيار، ذكر هنا آيتى الليل والنهار، وهما الآيتان بينما تدعوهم الآية الثالثة إلى شكر الله تعالى.

فالآيات تؤكد الحقيقة التى مرت فى الآيات السابقة، وهى تفرد الله بالخلق، وفيها تحد ضمنى للمنكرين والمشركين بأن يغيروا هاتين الآيتين المتعاقبتين ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ (القصص: ٧١)، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ (القصص: ٧٢)، ونفس الذى قيل هنا عن تفرد الله بالخلق والاختيار يقال أيضا فى تفرد الله تعالى بالحكم والقضاء، والسياق يحتمله والله أعلم.

ومعنى الآيات ﴿قُلْ ﴾ (القصص: ٧١)، لهم يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ ﴾ (القصص: ٧١)، أى: أخبرونى ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ (القصص: ٧١)، بظلامه وبرده ﴿سَرْمَدًا ﴾ (القصص: ٧١)، دائما ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ (القصص: ٧٢)، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ (القصص: ٧١)، كى يكون نهار تتمكنون فيه من مزاولة معاشكم وأموركم وحياتكم ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (القصص: ٧١)، فتعودن وتشكرون.

وقد قيل فى سبب ختم الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (القصص: ٧١)، وختم الثانية بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص: ٧٢)، أقوال: والواقع هو لإضفاء مزيد من الواقعية على هاتين الصورتين المتخيلتين، كأن الخطاب فى الأولى يوجه إليه وهم فى ليل مظلم ولا ضياء فيه، فيقال فى آخر هذا الخطاب ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (القصص: ٧١)، وكأن الخطاب فى الثانية يوجه إليه وهم فى نهار ساطع، فيقال فى آخر هذا الخطاب ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص: ٧٢)، والله أعلم بأسرار كلامه.

وختمت هذه الآيات بامتنان الله تعالى على عباده بنعمتى الليل والنهار، حيث الليل للسكون والراحة، والنهار للسعى والكدح فى المعاش، وتذكيرهم بهاتين النعمتين من أجل شكره، ففيها دعوة وترغيب، لهم فى اتباع أوامر الله تعالى والإيمان به، وبما جاء به نبيه ﷺ قبل أن يقفوا هذا الموقف يوم القيامة، فلا تنفعهم الندامة، التى يقع فيها الكفرة والمشركون حين يتمنون لو أنهم كانوا مهتدين.

ولهذا أتبع هذه الآيات بالمساءلة الثالثة فى موقف يوم القيامة وهى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ (القصص: ٧٤)، الله تعالى: ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص: ٧٤)، وهذه المرة لا ينتظر منهم جواب، فقد عميت عليهم الأسباب، بل لا يؤذن لهم فى الخطاب، كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (النحل: ٨٤).

ثم ينتقل الخطاب إلى أسلوب العظمة لله تعالى فيقول سبحانه: ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(القصص: ٧٥)، أى أفردنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ (القصص: ٧٥)، هو رسول تلك الأمة يشهد عليها بما فعلت به ويدعونه، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١).

وقال عن عيسى عليه السلام ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٥٩)، وقال على لسانه: ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ (المائدة: ١١٧)، فيشهد الأنبياء على أقوامهم ثم يوجّه الخطاب إلى المكذبين المشركين فيقول الله تعالى لهم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (القصص: ٧٥)، ودليلكم على ما أشركتم بى، وأنى لهم هنالك ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ﴾ (القصص: ٧٥)، فى الألوهية ﴿لِلَّهِ﴾ (القصص: ٧٥)، تعالى وحده ﴿وَضَلَّ﴾ (القصص: ٧٥)، وغاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (القصص: ٧٥)، ويكذبون فى الدنيا ويزعمون الشريك لله سبحانه بدون دليل ولا برهان.... فى الآية تحذير لأهل الدنيا من مصير أولئك المشركين الذين سيعلمون الحق بعد فوات الأوان حين لا ينفعهم ما أشركوا بالله شيئًا.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر

- تهديد الكافرين والمشركين من الموقف المهين يوم الدين، وإعلامهم أن الشركاء المزعومين لن يغنوا عنهم من الله شيئًا، بل سيتبرؤون منهم.
- ترغيب الناس فى التوبة إلى الله تعالى وإخلاص العبادة له والعمل الصالح من أجل النجاة والفوز والفلاح يوم القيامة.
- تفويض الأمور كلها إلى الله، كما مر تفويض الهداية إليه سبحانه وتعالى، فهو يخلق ما يشاء ويختار، وليس لأحد فيما لم يشأ اختيار.
- علم الله تعالى مطلق غير محدود، يشمل الظاهر والباطن، وما تكن الصدور.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- تفرد الله تعالى بالألوهية والعبودية، والحكم المطلق فى الدنيا والآخر.
- إثبات البعث بعد الموت، والوقوف للحساب والجزاء.
- امتنان الله على عباده بنعمتى الليل والنهار، وهما نعمتان مستمرتان على الدوام مما يستدعى المؤمن الصادق أن يشكر الله تعالى عليهما بالقول والعمل.
- سيعلم المشركون علم اليقين أن الحق فى العبادة هو لله تعالى وحده لا شريك له.
- يوم القيامة تظهر الحقائق، كما لم ينفع فرعون سلطان وجنوده عند نزول العذاب، فلن ينفع المشركين شركاءهم يوم القيامة حين يرون العذاب بل سيتبرءون منهم، وكذلك لن تنفع قارون أمواله، ولن ينفعه أتباعه، ففيها بيان لحال أهل الباطل والضلالة يوم القيامة.

كما تبين ضرورة التوبة والعمل الصالح للنجاة يوم الحساب.

وتوضيح تفرد الله تعالى بالخلق والاختيار فى هذا الكون وعليه فإنه سبحانه متفرد بوقت وكيفية نصرة أوليائه، والانتقام من أعدائه.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قصة قارون وعاقبة البغى والتكبر

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (القصص: ٧٦ - ٨٤)

تمهيـــــد

لما دلّ عجز المشركين فى الآخرة، وعلموا أن المتصرف فى جميع الأقدار هو الله الواحد القهار دلَّ ذلك أيضًا فى هذه الدنيا بوقوع عقابه فى أهل البطر والطغيان[1].

(١) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٣٤٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولما ذكر سبحانه وتعالى أن الشركاء لن يغنوا عن أتباعهم شيئًا، بل ينادونهم فلا يستجيبوا، وعنهم يضلُّون، ذكر بعد ذلك قصة قارون التى تدل على أن المال لن يغنى أهل الطغيان أيضا. والله أعلم.

المعنـــــى

تبدأ الآيات بالتأكيد على أن قارون كان من قوم موسى وليس من قوم فرعون وبسبب التأكيد هو أن قارون بغى على قومه وهو منهم، وكان المتوقع عليهم وهو منهم[١]. وأكثر أهل العلم على أنه ابن عم موسى عليه السلام[٢].

وسبب بغيه أن الله تعالى آتاه كنوزًا لا تحصى حتى إن مفاتيح الكنوز ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦)، فتثقل مفاتيحه على الجماعة من الرجال الأقوياء حتى تميل بهم[٣].

والمعنى: أن العصبة أولو القوة تعجز عن عمل مفاتيح الخزائن[٤]. والعصبة الجماعة متعصبة متعاضلة[٥]. فأنسته كثرة الأموال شكر الكبير المتعال...

---

(١) نفس المصدر. (١٤ / ٣٤٩).

(٢) جامع البيان للطبرى، (٢٠ – ١٠٥ – ١٠٦).

(٣) جامع البيان للطبرى، (٢٠ – ١٠٩ – ١١٠).
غريب القرآن: للسجستانى (١٥٢).
إعراب القرآن للنحاس (٣ / ٢٤٢)
التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى (٢ – ١٥١).
تفسير أبى السعود (٧ / ٢٤) يقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله.

(٤) بحر العلوم: نصر بن محمد السمرقندى، (٢ / ٥٢٦).

(٥) المفردات فى غريب القرآن: الحسين بن محمد حادة (ع ص ب)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد بغى قارون على قومه عندما وعظوه ونصحوه ألا يفرح فرحًا يطغيه وينسيه الآخرة[١]. فيبعد عن فريق من يحبهم الله تعالى كما نصحوه أن ينفق أن ينفق الأموال فى سبيل الله، والدار الآخرة، لا على سبيل الزهر والتخلى عن كل متع الحياة وإنما على سبيل الاعتدال، ولذا قالوا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، ودعوه إلى الإحسان بدفع الأموال للمحتاجين والمستحقين شكرا لعطاء الله تعالى وإحسانه إليه[٢]. وحذروه من اتباع سبيل فرعون وملئه المفسدين فى الأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦).

فإن قارون لم يكتف بعدم الإصغاء إليهم والسعى فيما هو فيه من اللهو ومتاع الدنيا، كما لم يكتف بما أوقعه فى بنى عمه من البغى والعدوان، بل زاد أن أنكر فضل الله عليه، وإحسانه إليه، فقال عن المال الذى بين يديه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ (القصص: ٧٨)، وهذا العلم هو سبب حصولى على هذه الكنوز[٣].

وكغيره من الطغاة يتناسى مصير أمثاله ممن سبق، فلا يعتبر بغيره حتي يكون هو عبرة لغيره، ولهذا وبخ بقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ (القصص: ٧٨)، حيث بلغوا من الإجرام والبغى ما بلغوا حتى اشتهر ذلك وانتشر ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: ٧٨)، والله عليم بما يفعلون.

---

(١) روى عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)، الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. تفسير القرآن العظيم ابن كثير، (٦ / ٣٣٧).

(٢) فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧)، أقوال كثيرة: جماعها استعمل نعم الله فى طاعته. أحكام القرآن: لابن عربى (٣ / ٥١٢).

(٣) هو أن يكون حصل على المال بعلمه وتجارته، ومهارته فيها، حيث نسب العلم لنفسه ﴿عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ (القصص: ٧٨)، ولم ينسبه إلى الله تعالى. والله أعلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبعد أن رفض قارون النصيحة أراد أن يستعرض زينته وأمواله على قومه، ليبين لهم أنه على حق وأنهم على باطل، ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ (القصص: ٧٩)، وأبهته وسلطانه، مستعرضًا متكبرًا، وعندما رآه العوام من الناس ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص: ٧٩)، قالوا متمنين ما هو مستحيل فى نظرهم ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ (القصص: ٧٩)، من الأموال والكنوز، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص: ٧٩).

وهنا أجابهم العقلاء من قومهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ (القصص: ٨٠)، بحقائق الأمور وبواطنها زجرا لهم عن الدنيا وحثا لهم على الآخرة ﴿وَيْلَكُمْ ﴾ (القصص: ٨٠)، ما أُعجب أمركم ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ (القصص: ٨٠)، من كنوز الدنيا ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ (القصص: ٨٠)، وجه الله، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ (النساء: ٧٧)، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى: ١٧).

ومثل هذه النصيحة فى مثل هذا الموقف مع معاينة الزينة حاضرة صعبة على النفس، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ (القصص: ٨٠)، أى : لا يجعل لاقيا لهذه النصيحة وعاملاً بها، أولا يوفق لقيل هذه الكلمة ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[(١)] (القصص: ٨٠).

وهنا ينتقل المشهد بسرعة إلى خاتمة مروعة لهذا المجرم المفسد حيث خسفت الأرض به وبداره التى تحتوى على أمواله، حتى لا يقال: إن الخسف كان للرغبة فى أخذ أمواله[(٢)].

---

(١) جامع البيان: للطبرى (٢٠ / ١١٦). نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٣٥٨).

(٢) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٣٥٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كما قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة[١]» ولم ينصره قرابته، ولا أعوانه، ولا عماله، من عذاب الله تعالى، ولم يكن هو ذا قوة للانتصار لنفسه، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فصلت: ١٥).

وفى الآية تحذير ضمنى بكفار قريش وهم قوم النبى ﷺ وقد بغوا عليه وعذبوه، وتخويف لهم من نزول العذاب كما نزل بقارون وهو من قوم موسى لما بغى عليهم.

وعندما وقع الخسف وحل العذاب عاد الجهال الراغبين فى الدنيا إلى عقلهم ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ (القصص: ٨٢)، القريب ﴿يَقُولُونَ﴾ (القصص: ٨٢)، تعجبا وندما: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ (القصص: ٨٢)، أى: يضيق على من يشاء، وذكروا فضل الله تعالى عليهم ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ (القصص: ٨٢)، وعلموا أنه لا يفلح الكافرون.. وفى هذه الآية تأكيد على إلوهية الله تعالى وتفرده سبحانه بالحكم والقضاء فى توزيع الرزق وإنزال العذاب.

وبعد بيان حقيقة الدنيا ومتاعها، تختم الآيات ببيان عظمة الآخرة، وترغيب الناس فى العمل من أجلها والحصول على الكرامة فيها بحقها فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ (القصص: ٨٣)، بل يتبرؤون من أعمال المفسدين المتعالين كفرعون وهامان وقارون وكفار قريش إذ الكبر خلق ذميم يحرم، كما قال النبى ﷺ: «إنه أوحى إلىَّ أن تواضعُوا، حتى

(١) أخرجه البخارى، (٥٧٩٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغى أحدٌ على أحد»[١] ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ (القصص: ٨٣)، فى الدارين ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣). ثم يتلو ذلك ببيان أن الآخرة هى دار الجزاء على الأعمال، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ (القصص: ٨٤)، أضعافًا مضاعفة فضلا وكرامة من الله تعالى، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (القصص: ٨٤)، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ (النبأ: ٢٦)، وأظهر فى الآية ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (القصص: ٨٤). تصويرًا لحالهم وتقبيحا لأعمالهم، وتنفيرًا من فعالهم[٢].

❁ ❁ ❁

دروس وعبر

- البغى مرتعه وخيم، والظلم مؤذن بخراب العمران والديار[٣].
- كثرة المال قد تكون محنة وبلاء، وسببا للطغيان والفساد فى الأرض[٤].
- يغتر الكفار بمتاع الحياة الدنيا، ويبطرون نعم الله تعالى، مما يجعلهم مستحقين للعقوبة.
- لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم سؤال استعلام واستعتاب، فالله عليم بكل شىء ولا يقبل اعتذارهم يوم القيامة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ[٥].
- الإيمان الصادق يقتضى العمل الصالح، والصبر على التكاليف.
- العاقل من اتعظ بغيره، ولم ينتظر حتى يكون هو عبرة لغيره.

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٨٦٥).
(٢) نظم الدرر: البقاعى، (١٤/ ٣٧٣).
(٣) التفسير المنير: الزحيلى (١٩ – ١٦٢ – ١٦٩).
(٤) المصدر السابق، (١٩ / ١٦٢).
(٥) المصدر السابق، (١٩ / ١٦٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- من الناس من يغتر بظواهر الأمور[1]، وينبهر بالمظاهر، وهم الذين أعجبوا بمنظر قارون وهو خارج فى زينته، حتى إنهم تمنوا مثل ماله، واعتبروه إنسانًا محفوظًا، ولكنهم بعد قليل من وقوع العذاب به عادوا إلى رشدهم، وتذكروا نعمة الله عليهم فى أنقذهم من مصير قارون وأتباعه.
- العلو والكبر والفساد فى الأرض من الموبقات فى الدنيا والآخرة.
- العاقبة للمتقين، والخاتمة الحسنة للحق وأتباعه.
- فى الآيات بيان لعاقبة أهل البغى والفساد. وهنا تضرب قصة قارون كمثل للبغى والفساد بسبب كثرة الأموال. وفيها دعوة إلى استخدام خيرات من أجل الحصول على الدرجات العليا فى الدار الأخرى.. وفيه دعوة إلى الإيمان والعمل الصالح. والاتعاظ بمصائر الظالمين المفسدين، وتذكر أن العاقبة للمتقين، والاستعداد للحساب يوم الدين.

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق، (١٩ / ١٦٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بشارة النبى ﷺ بالعودة إلى مكة وخاتمة السورة

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (القصص: ٨٥ - ٨٨)

تمهيـــــــد

المناسبة بين الآيات ظاهرة، فعلى تفسير (المعاد) بأنه يوم القيامة يقال فى المناسبة بعد أن ذكر الله تعالى الآخرة وما يكون فيها من جزاء وحساب، وثواب وعقاب، أتبع ذلك بتأكيد القيامة والبعث بقوله ﴿لَرَآدُّكَ﴾ (القصص: ٨٥)، بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)[1].

وعلى تفسير (المعاد) بأن مكة المكرمة يقال فى المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى جزاء المفسدين المعاندين، وبين أن العاقبة للمتقين، بشّر نبيه ﷺ بحسن العاقبة ووعده بالعودة إلى مكة المكرمة عودًا حميدًا مكرّمًا، وكلا التفسيرين ينسجم تمامًا مع بيان الصراع بين الحق والباطل، وبيان عاقبة المتقين، وعقاب المفسدين.

المعانـــــى

تبدأ الآيات بمخاطبة النبى ﷺ وتأكيد أن الله تعالى الذى أنزل عليك القرآن، وأوجب عليك اتباعه والعمل به[2] ﴿لَرَآدُّكَ﴾ (القصص: ٨٥)، بعد

(١) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٣٧٤) بتصرف.

(٢) لباب التأويل: الخازن، (٤١٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)، أى مرجع هو يوم القيامة، ليثيبك على قيامك بمهام الرسالة والدعوة التى كلفت بها، ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩).

هذا على أن المراد بالمعاد يوم القيامة وعن ابن عباس: رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)، قال: إلى مكة[١] فمعاد الرجل: بلده، لأنه يتصرف فى البلاد، ويضرب فى الأرض، ثم يعود إلى بلده[٢] فسمّيت مكة معادًا لعودته إليها[٣]، وقيل المراد بالمعاد: الموت وقيل الجنة[٤].

ثم يتواصل الخطاب للنبى ﷺ ولا عليك من الكافرين المعاندين المنكرين، بل قل لهم: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ (القصص: ٨٥)، وهو النبى ﷺ الذى جاء بالقرآن الكريم ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢).

وربى أعلم بمن ﴿هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (القصص: ٨٥)، وهو أنتم أيها المنكرون، الذين رفضتم اتباع ما جئت به من الله تعالى.

ثم ينتقل الخطاب إلى النبى ﷺ امتنانا عليه بفضل الله وإحسانه إليه ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ (القصص: ٨٦)، الذى جئت به من الله تعالى، وإنما إلقى إليك ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (القصص: ٨٦)، بل، ورحمة للناس كافة تهديهم به ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ (القصص: ٨٦)، ومعينًا ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ (القصص: ٨٦)، بعد أعلمت كفرهم وعنادهم، ونبين لك أن

---

(١) أخرجه البخارى برقم (٤٧٧٣).

(٢) مشكل القرآن: ابن قتيبة وقارن بمعالم التنزيل للبغوى (٦ / ٢٢٦ – ٢٢٧).

(٣) الوسيط فى تفسير القرآن المجيد: على ابن أحمد الواحدى النيسابورى (٣ / ٤١١).

(٤) زاد المسير فى علم التفسير: ابن الجوزى، (٦ / ٢٥٠).

لباب التأويل: للخازن، (٤١٥). تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٦ / ٣٤٥ – ٣٤٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

طلباتهم إنما كانت على سبيل المغالطة والعناد وليس بحثا عن سبيل الهدى والرشاد، بل استمر فى دعوتهم وبيان الحق لهم، ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ (القصص: ٨٧)، الكفار بإعراضهم وكفرهم ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (القصص: ٨٧)، والدعوة إليها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٨٧)، أى بعد وقت أنزالها[١] فادع إلى ما فيها من أوامر ونواهى، وترغيب وترهيب، ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ (القصص: ٨٧)، الذى أحسن إليك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (القصص: ٨٧)، بأن تترك نهيهم عن شركهم فتكون معدودًا فى عدادهم ، إذ الساكت عن فاعل المنكر شريك له، وفى تأكيد النهى فى الآية بدرء المفاسد قدر المستطاع[٢].

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ (القصص: ٨٨)، كما قد يطلب منك المشركون أن تعبد آلهتهم المزعومة والتى لا تفنى شيئًا لأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (القصص: ٨٨)، وحده جل جلاله، وهو وحده الذى يبقى سبحانه وتعالى إذ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ﴾ (القصص: ٨٨)، لا محالة إلا الله سبحانه وتعالى الحى القيوم، ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ (القصص: ٨٨)، والتصرف النافذ المطلق ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨)، يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم.

قال ابن عباس: الخطاب فى الظاهر للنبى ﷺ، والمراد به أهل دينه، أى: لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم[٣] والعصمة للنبى ﷺ لا تمنع من توجيه

---

(١) الكشاف : للزمخشرى، (٣ : ١٩٤).

(٢) نظم الدرر: البقاعى، (١٤ / ٣٨١).

(٣) الوسيط فى تفسير القرآن المجيد، على بن أحمد الواحدى النيسابورى (٣ / ٤١١).
معالم التنزيل: للبغوى، (٦ / ٢٢٨).
لباب التأويل: للخازن (٣ / ٤١٦).
زاد المسير: ابن الجوزى (٦ / ٢٥١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النهى[١]، والله أعلم. وهى تختم هذه السورة الكريمة بهذا البيان البديع لحقائق الأمور فى الدنيا، ومآلها فى الأخرة، بعد أن تنوعت مقاطعها، وانسجمت فى عقد نضيد، مبنية أن الشركاء لن يغنوا عن أتباعهم شيئًا، لا فى الدنيا عند نزولها العذاب، كما حصل لفرق ولهامان ولقارون، ولن يغنوا عنهم شيئًا يوم القيامة، كما سبق بيانه فى مواقف المساءلة الثلاثة، وحينها يتمنى هؤلاء المشركون ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ (القصص: ٦٤)، فى الدنيا ﴿يَهْتَدُونَ﴾ (القصص: ٦٤).

❁ ❁ ❁

دروس وعبر

- البشارة للنبى ﷺ فى العودة إلى مكة منصورًا ظافِرًا، بعد أن أخرجه قومه منها، مصداقًا لقول الله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ (القصص: ٨٣).
- ضرورة استعمال أسلوب اللين والحكمة وإثارة الانتباه ودفع المقابل إلى التفكير فى حقيقة الإسلام، وفسح المجال للمناقشة والأخذ والرد، وهو الأسلوب الذى استخدمه القرآن فى قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢] (القصص: ٨٥).
- لم يكن أحد يعلم أن الله سيبعث محمدًا ﷺ رسولاً، وينزل عليكم عليه القرآن الكريم نورًا وهدى وتشريعًا مفروضا، حتى رسول الله ﷺ لم يكن بذلك[٣].
- فى الآيات نفى لكل معهود سوى الله تعالى، وإثبات العبادة لله تعالى وحده، حيث كلفت الآيات الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى وتحمل المشاق التى قد

(١) تفسير النسفى: بهامش لباب التأويل (٣ / ٤١٦).
(٢) التفسير المنير: د: وهبة الزحيلى، (١٩ / ١٧٩).
(٣) المرجع السابق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يواجهها وعدم الالتفات إلى أقوال الكفار وأذاهم، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتكليف موصول إلى أمته ﷺ[١].

- إثبات يوم القيامة، والبعث والنشور، وإعادة الخلق بعد الموت، ووقوفهم بين يدى الله تعالى للحساب والجزاء.

- بيان نهاية العالم كله، وهو الهلاك الشامل لكل شىء سوى الله تعالى، ففيها إخبار بأنه سبحانه الدائم الباقى الحى القيوم كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ (الرحمن: ٢٦ - ٢٧)، وفيها إخبار برجوع الخلق كلهم إليه للحساب والجزاء[٢].

فى الآيات وعد بحسن عاقبة سيد المتقين، وأفضل الخلق أجمعين ﷺ وعدله بالرجوع إلى مكة المكرمة ظافرًا منتصرًا معززا مكرمًا، وقد جاء هذا الوعد، وهو فى طريق خروجه من مكة المكرمة: وزيادة فى تأكيد تفرد الله تعالى بالحكم والقضاء والاختبار، وفى المقطع تحذير من اتباع سبيل الكافرين أو التساهل معهم أو التكاسل فى دعوتهم أو الخوف منهم.

والسورة بيان حقائق كونية، هى تفرد الله تعالى بالألوهية، ونفى الشركاء عنه، وإثبات البقاء له وحده سبحانه، وتفرده بالحكم والقضاء، وإثبات البعث والجزاء.

❁ ❁ ❁

(١) المرجع السابق، (١٩/ ١٨٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٦ / ٣٤٨).
التفسير المنير: وهبة الزحيلى، (١٩ / ٥٤).

شبكة الألوكة - قسم الكتب